اليسار الجديد

ليكن الوطن محلاً
للسعادة المشتركة
.. نبنيه بالحرية
والعقل والمصنع.

رفاعة الطهطاوى

■ منزلة المرأة

■ دعوة للحوار



من أعمال الفنان: فتحي عفيفي

■ الاستراتيجية الأمريكية للسيطرة على البترول

■ من الذى يقف وراء الحرب ضد العراق

■ مبادرات لتدمير العرب

■ محاكمة شعبية لجرائم شارون

■ ملاحظات على تقرير التنمية الإنسانية

■ أسباب تأخر الأمة

الاصدار الثانى - العدد الرابع - شتاء ٢٠٠٣

اليسار الجديد



*مجلة فصلية فكرية تصدر عن حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي.

*الادارة والتحرير ١ ش كريم الدولة– ميدان طلعت حرب– القاهرة.

هاتف : ٥٧٩١٦٢٩– ٥٧٩١٦٢٨

فاكس : ٥٧٨٦٢٩٨– ٥٧٨٤٨٦٧

البريد الالكتروني

elyassar@alahali.com.



الاشتراكات:

في مصر :

سنويا للأفراد ١٢ جنيها

للمؤسسات ١٥ جنيه

خارج مصر:

للأفراد ١٥ دولار

للمؤسسات ٢٠ دولار

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الإدارة

المحتويات

دعوة لمزيد من الحوار العلمى الهادئ

ولمزيد من مشاركة الشباب

■ د. إبراهيم سعد الدين

فى افتتاحية العدد الأول لمجلة اليسار الجديد طرحت الأسباب التى تستوجب من وجهة نظرى إصدار مجلة لليسار من نوع جديد ، تركز على بحث القضايا الفكرية الخاصة بالاشتراكية ، وتناقش فى نفس الوقت مشاكل مصر وتطرح حلولا لها من وجهة نظر اليسار المصرى.

وأشرت فى هذا الإطار إلى عدد من القضايا الأساسية التى تتعلق بالفكر والممارسة الاشتراكية وبالحركة الاشتراكية الدولية التى اقترحت أهمية دراستها ومناقشتها وإعادة بحثها على ضوء التطورات المعاصرة فى الإطار السياسى الدولى وفى الأوضاع الاقتصادية العالمية والتطور فى طبيعة النظام الرأسمالى العالمى الذى دخل مرحلة جديدة هى مرحلة العولمة وعلى ضوء أيضا حركة النضال العالمى المعاصرة فى مواجهة العولمة والهيمنة الأمريكية.

وكان كل ما قدمته فى هذا الإطار هو مجرد رصد لعدد من الملاحظات التى رأيت كمفكر مصرى انشغل فى الماضى ولم يزل منشغلا حتى الآن بقضايا النضال من أجل العدل الاجتماعى والديمقراطية وحقوق الإنسان وتحسين نوعية الحياة ، ومارس مع غيره النضال ضد الاستعمار والإمبريالية لتحقيق التحرر الوطنى والقومى، كما ناضل من أجل تحقيق تحول اشتراكى فى مصر باعتبار ذلك الطريق الأصوب والأعدل لتحقيق أهداف مصر فى التقدم والحرية والعدل الاجتماعى . والتزم بالمنهج الماركسى باعتباره المنهج العلمى الأقوم لتحليل التطورات الاجتماعية والسياسية على

النطاق العالمى وفى الإطار الوطنى والقومى ، والتعرف على طبيعة التناقضات الطبقية والدولية واستشراف إمكانات التغيير والتحول فى المستقبل بما يرشد حركة الصراع الدولى والوطنى والقومى من أجل تحقيق أهداف الإنسانية فى التحرر والديمقراطية والعدل الاجتماعى والتحسين المستمر فى نوعية الحياة.

أكرر مرة أخرى القول بأننى رأيت ضرورة طرحها للنقاش وإعادة دراستها على ضوء التطورات المعاصرة.

ولا تشكل أى من الملاحظات التى أبديتها استخلاصا علميا جديدا ولا تكون قناعة فكرية ألتزم بها وأدافع عنها. فهى مجرد قراءة للواقع قد تكون صحيحة أو غير صحيحة . ولكنها تسعى فى كل الأحوال أن تكون موضوعية وأن تستلهم الواقع ولا تتشبث بقناعات فكرية لمجرد الدفاع عما اعتقدنا لفترة طويلة بصحته.

وقد أكون من أكثر الناس سعادة لو تبين لى أن الملاحظات التى أوردتها ليست صحيحة وأن قراءاتى للواقع غير سديدة. وأن الأمر على عكس ما أقول أو أزعم . وأرحب ترحيباً شديداً بأى قراءة معاكسة للواقع تستند إلى حقائق موضوعية لا إلى مجرد التمسك بصحة استنتاجاتنا السابقة.

ومن الأسف أن قراءاتى للواقع كان لها ردود أفعال عكسية . لدى العديد من مفكرى ومناضلى اليسار الذين سارعوا برفض هذه الرؤية لا لمناقشتها .فالأستاذ محمود أمين العالم الذى كان قد قبل أن يكون أحد مستشارى المجلة أبلغنى بأنه لا يقبل الاستمرار مستشارا للمجلة بعد أن تبين له أن اتجاهاتها قبل قضايا الاشتراكية والنضال الوطنى والقومى هى اتجاهات تخالف أفكاره وقناعاته.

والأستاذ نبيل الهلالى المناضل اليسارى المعروف عبر فى ندوة عن اليسار ومستقبل مصر عقدت فى مركز البحوث العربية وتابعها خالد حريب ونشر تقرير عنها فى مجلة اليسار الجديد فى عدديها الثانى والثالث . سجل الأستاذ الهلالى اعتراضه الشديد على ما ورد فى افتتاحية اليسار الجديد حول اختفاء مزعوم للصراع من أجل إقامة نظام اشتراكى عالمى كبديل للرأسمالية ولبناء نظام اقتصادى اجتماعى بديل على النطاق العالمى مؤكدا أن هذا النضال العالمى نضال قديم جديد لم ولن يتوقف أبداً ويدعو للتوقف عن إطلاق مثل هذه المقولات المثبطة للهمم.

أما الزميل العامل النقابى عطية الصيرفى فيذهب فى مقال له نشر فى هذا العدد إلى أن إضافة كلمة الجديد إلى عنوان مجلة اليسار فى إصدارها الثانى هو أمر له مغزاه

السياسى والطبقى الذى لا علاقة له باليسار الاشتراكى . وأن الإصدار الثانى لمجلة اليسار الجديد قصده المشاركة فى زفة التهليل للرأسمالية والمشاركة فى إشهار إفلاس الماركسية . وأن ما كتب فى اليسار الجديد هو بمثابة شهادة ضد الماركسية واشتراكيتها صدرت من أهلها اليساريين المصريين فى وقت تفشت فيه عبودية العولمة الأمريكية والصهيونية واستبعادها الصارخ للبشر كل البشر. ويعلن الزميل عطية الصيرفى أن المثقفين اليساريين قد انبهروا بالعولمة .

وأن هذا الانبهار قد بدأ فى مصر المعاصرة بظهور الإصدار الثانى لمجلة اليسار الجديد الداعية إلى نشوء يسار جديد يرتكز على أصول مرجعية غير ماركسية . وأن الافتتاحية التى كتبتها كانت بمثابة لطمة للماركسية وحرب على الاشتراكية . ويخص بالذكر ما أوردته فى الافتتاحية حول التناقض بين الطابع الاجتماعى للإنتاج والطابع الفردى للملكية مستخلصا مما قلته أن قناعتى قد رسبت على ضفاف مفهوم العالم اليابانى الأمريكى فوكوياما فيلسوف عولمة رأس المال.

إن هذا الرفض والاتهام من مفكرين ومناضلين أجلهم وأحترمهم وأقدر نضالهم الدؤوب والمستمر من أجل الاشتراكية والديمقراطية والتحرر هو أمر متوقع ولكن للأسف الشديد غير مقنع . إنه موقف يعبر عن انزعاج شديد مما يحدث فى الواقع ورفض للتسليم بأن التطورات الجديدة والمعاصرة التى تحدث فى إطار النظام الرأسمالى العالمى من ناحية ، وفى حركة النضال ضد الرأسمالية من جهة أخرى ، وفى مجال العلم والتكنولوجيا من ناحية ثالثة تتطلب إعادة نظر شاملة فى عديد من المسلمات التى قبلناها لمدة طويلة .وهو تعبير عن موقف إيمانى بالماركسية من ناحية وبالاشتراكية من ناحية أخرى.

ونعود مرة أخرى إلى بعض مما طرحناه . لقد بدأت بالتذكير بأن الحركة الاشتراكية كانت ذات طابع دولى منذ بداية الدولية الأولى، وأنها استهدفت إقامة نظام اشتراكى عالمى بديل للنظام الرأسمالى العالمى .وكان معنى العالمية عند ماركس وفى فترة الدولية الأولى ينصرف إلى الدول الرأسمالية المتقدمة فى أوروبا وأمريكا الشمالية وأيضا فى اليابان . ثم أصبحت الحركة الاشتراكية الدولية تغطى أيضا الدول التابعة والدول حديثة الاستقلال فى إبان عصر سيادة الإمبريالية وعصر النضال ضد الاستعمار ومن أجل التحرر الوطنى والقومى . واستمر هذا الطابع الدولى للحركة الاشتراكية فى عصر تصفية الاستعمار وفى عصر النضال من أجل التنمية والتحرر والسعى لتصفية التبعية فى المرحلة

التى تلت الحرب العالمية الثانية والتى تلت نجاح الدول المستعمرة فى نيل استقلالها.

ولكن هذا النضال من أجل إقامة نظام اشتراكى دولى بديل للنظام الرأسمالى الدولى يبدو أنه قد توقف بعد تصفية التجربة السوفيتية وبعد تصفية الماوية فى الصين.

إن ما قدمته من ملاحظة بالنسبة لهذا الموضوع ليس استخلاصا نظريا ولا هو أمر يتعلق بصحة النظرية الماركسية أو عدم صحتها . إنه مجرد قراءة للواقع فى حدود علمى ومعرفتى التى لا أدعى أنها شاملة.

وقد تكون قراءتى للواقع صحيحة . ولكن رفض هذه القراءة للواقع لا تتم بمجرد القول بأنها مقولة مزعومة أو بوصف هذا القول بأنه مثبط للهمم. إن الرفض يمكن أن يكون مجديا فقط ببيان الوجود الفعلى لحركة اشتراكية دولية معاصرة نناضل من أجل إقامة نظام اقتصادى اجتماعى بديل للنظام الرأسمالى الدولى . وبيان ممن تتكون هذه الحركة وطبيعة أطروحاتها وأشكال نضالها والقوى الاجتماعية والطبقية التى تعتمد عليها والقوى الحليفة.

وقد يكون من المفيد هنا أن أؤكد على أن القول بغياب النضال من أجل إقامة نظام اشتراكى دولى فى الفترة التاريخية التى تلت انهيار التجربة السوفيتية وتصفية الماوية فى الصين لا يعنى القول بأن مثل هذا النضال لن يوجد مستقبلا وأن مثل هذا السعى سيختفى إلى الأبد ولا التسليم بأن الرأسمالية هى النظام الاقتصادى الاجتماعى الأخير سيسود العالم.

إن أشكالا جديدة من النضال والصراع تتفجر فى أكثر من ميدان فى المرحلة العالمية المعاصرة ، فالحركات التى تناضل من أجل المحافظة على البيئة ومن أجل تحسين نوعية الحياة، والتى تناضل من أجل حقوق الإنسان ومن أجل السلم وضد الهيمنة الأمريكية والعدوان الصهيونى وضد التمييز العنصرى والدينى والنضال لتصفية الفقر كل هذه أشكال متعددة من النضال ضد الرأسمالية المعاصرة فى مرحلة العولمة. وقد تكون كل هذه الصراعات والنضالات لبنات فى الصراع ضد الرأسمالية ومن أجل إقامة نظام اقتصادى اجتماعى اقتصادى بديل، وقد تكون هى منطلق تحليل أكثر شمولا وعمقا لطبيعة المرحلة الحالية للرأسمالية ولطبيعة تناقضاتها، والاحتمالات تطور المستقبل وتحديد ماهية النظام الاقتصادى الاجتماعى البديل الذى يجرى السعى لإقامته لتحرير الإنسان والقضاء على الاستغلال وتحقيق العدل الاجتماعى والتحسين المستمر لنوعية الحياة لكل البشر. ولكن هذه اللبنات لا تشكل حتى الآن بناء نظريا جديداً . ولا تحدد هدفا لها بناء نظام

اقتصادى اجتماعى بديل عن الرأسمالية . إن جهداً علمياً نظرياً ، يستند إلى دراسة الواقع ومعرفة الاشتراكية وعلماء الاجتماع والاقتصاد الاشتراكيين والقيادات الفكرية لحركات النضال لاستنتاج الجديد ولرسم طريق المستقبل . ومن الطبيعى أن يستند مثل هذا الجهد النظرى على المنهج الماركسى الذى لا يزال يشكل أهم وأصلح المناهج العلمية لتحليل واستشراف آفاق التطور الممكنة فى النظام الرأسمالى وتحليل التغيرات الاقتصادية الاجتماعية فى المدى الطويل . على أن الالتزام بالمنهج الماركسى للتحليل الاقتصادى الاجتماعى لا يعنى بالضرورة التمسك بالاستنتاجات الذى وصل إليها المفكرون الماركسيون فى مراحل سابقة، والجمود عندها ونعود من هنا إلى معالجة تلك الاتهامات الجارفة التى كالها الزميل عطية الصيرفى لمجلة اليسار الجديد ولكاتب هذا المقال وللدكتور رفعت السعيد، حيث اعتبر ما جاء فى مجلة اليسار الجديد شهادة ضد الماركسية واشتراكيتها وإشهاراً لإفلاسها فى مواجهة عالم رأس المال وعولته الأمريكية والصهيونية المتوحشة يصدر من يساريين مصريين. فأشير إلى أهمية التمييز بين منهج التحليل الماركسى للتطورات الاقتصادية الاجتماعية والتنظيم الاقتصادى الاجتماعى من ناحية أخرى وبين الاستنتاجات التى وصل إليها ماركس عند تحليله للنظام الرأسمالى ، والتى وصل إليها لينين بعد أن انتقلت الرأسمالية الدولية إلى مرحلة الإمبريالية والتى وصلت إليها الدولية الثالثة فى المرحلة التالية للثورة البلشفية وغيرها من الاستنتاجات النظرية التى قدمها العديد من الماركسيين فى مراحل مختلفة من مراحل التطور والصراع الاجتماعى الاقتصادى بمن فيهم روزالوكسمبرج ، وجرامش ، وماوس تونج وغيرهم.

إن التمسك بالمنهج الماركسى فى تحليل التطورات الاقتصادية الاجتماعية لا يعنى ضرورة التمسك بكل استنتاجات ماركس أو لينين أو ماوتس تونج أو غيرهم . إن التمسك بالمنهج الماركسى يصدر من إدراك أن هذا المنهج لا يزال من أفضل المناهج العلمية فى تحليل التغيرات الاقتصادية الاجتماعية والتعرف على طبيعة التناقضات واستشراف احتمالات التطور فى المستقبل.

ونشير هنا إلى ملاحظتنا الخاصة بأن القول بحتمية الحل الاشتراكى استناداً إلى التناقض بين طابع الملكية الرأسمالية الفردية ، وبين الطابع الاجتماعى لعملية الإنتاج والتوزيع لم يعد يستند إلى أساس بعد أن برزت أشكال جديدة للملكية فى إطار الرأسمالية، كما برزت وسائل جديدة للاتصال مكنت من الإدارة

الكفـاءة للمشروعـات الرأسماليـة لا فى الإطار الوطنى أو القومى فقط بل وعلى النطاق العالمى أيضا مؤكدين على أن مثل هذا القول لا يعنى اتخاذ موقف مضاد للماركسية . بل يكون فقط قراءة جديدة للواقع تتطلب إعادة النظر فى مقولات سبق الاستناد إليها ولم تعد قائمة فى العالم المعاصر . إن النضال من أجل الاشتراكية لا ينبعث الآن من حتميتها ولكن من أفضليتها كنظام اقتصادى اجتماعى أكثر عدلا ويمكن أن يصبح فى الوقت نفسه أكثر كفاءة.

وفى ظننا أن مجلتنا مع غيرها من الإصدارات الفكرية يمكن أن تؤدى دوراً مهماً فى هذا المجال أولا ببعدها عن الجمود . وبتحليها بالجرأة فى مناقشة قضايا عالمنا المعاصر ومشاكل مصر والعالم العربى من منطلق يسارى . وإبداء الرأى العلمى الحر دون قيود أو خوف من اتهام ، وإتاحة الحرية للرأى والرأى المضاد مهما اشتط الرأى أو اختلفت وجهات النظر.

كما يمكن لمجلتنا أن تلعب دوراً أساسياً فى تعريف المفكرين الاشتراكيين فى مصر بالجديد فى الفكر الاشتراكى العالمى وتعريفهم بالإصدارات الجديدة وعرض الكتب العربية والأجنبية وعرض القضايا التى تناقش عن طريق الإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال.

ولتلعب مجلتنا دوراً فعالاً فى إحياء الفكر والنضال الاشتراكى فإننا نتطلع إلى مساهمات المفكرين الاشتراكيين من الشبان. فمستقبل الاشتراكية فى مصر رهن بنضالهم، ولذا فإننا نوجه دعوة خاصة إلى المفكرين من الشباب بأن يلعبوا الدور المنوط بهم فى المجال الفكرى والثقافى . وصفحات المجلة مفتوحة لهم بلا قيود مهما كانت آراؤهم ومقترحاتهم وبصفة خاصة لنقدهم مهما اشتد.. فالمستقبل هو مستقبلهم . وأى اشتراكية ستبنى فى المستقبل ستكون نتيجة لنضالهم ...ومصر القادمة هى مصرهم.

قـــــالوا

إن الخطأ لا يصير حقا عندما يتضاعف

غاندى

إن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس.

ديكارت

أحب التراث العربى ولا يقف بينى وبينه حجاب .. ولكنى أعتقد أنه ليس مقدسا وأن فيه غثاء كثيرا لا يستحق الأحياء .

المؤرخ الفلسطينى

د. إحسان عباس

الحرب ضـــد العراق .. مَنْ وراءها ؟

□ د.منار الشوربجى

" هناك منظومة قيم لايجوز المساومة بشأنها . فهى القيم التى نجلها. وإذا كانت هذه القيم مناسبة لشعبنا ، فهى بالضرورة مناسبة للآخرين ، فالمسألة ليست أننا نفرضها عليهم . فهى قيم إلهية . وهذه القيم لم تخترعها الولايات المتحدة ، فهى قيم الحرية والوجود الإنسانى ، وحب الأم لصغارها ".

الرئيس الأمريكى جورج بوش (١).

تجسد تلك العبارات التى قالها الرئيس الأمريكى طبيعة الخطاب الذى تستخدمه القوى التى تدفع نحو الحرب ضد العراق. فهى قوى تؤمن بأن العالم " ليس فقط معقدا ولكنه ملىء " بالأشرار" (٢)، وبالتالى فهو فى حاجة إلى " وضوح أخلاقى" moral clarity للتعامل معه، والوضوح الأخلاقى ينطوى بالتالى على مواقف جدية من نوع " معنا أو ضدنا" ، " خير أو شر" . أى أن العالم أبيض وأسود فقط ، لاتوجد فيه مساحات رمادية ، ومن ثم لامجال للتفاوض ، الذى هو جوهر العلاقات الدولية . ولايمكن التوصل إلى حلول وسط و تعايش . فلأن المسألة" خير وشر" بالمطلق فإنه لايجوز بالضرورة التفاوض أو التعايش مع " الشر" بعد تعريفه أمريكيا بالطبع.

والعبارة التى قالها الرئيس الأمريكى تجسد أيضا نقطة التماس بين تيارين ، رغم اختلافهما ، التقيا حول أهداف بعينها . فالطابع " الرسالى" المتضمن فى العبارة هو نقطة التماس التى يمكن من

خلالها أن يلتقى تيار " المحافظين الجدد neo conservatives وتيار اليمين الدينى حول مسألة " الوضوح الأخلاقى" . وهذان التياران هما أهم القوى الدافعة اليوم نحو الحرب على العراق. بل إن فكرهما يمثل الركيزة الأساسية التى تنطلق منها كل سياسات الإدارة الأمريكية الحالية. ففى السياسة الداخلية والخارجية معا، تتحرك هذه الإدارة فى مربع فكرى تتدافع فيه المنظومة الفكرية لهذين التيارين ، دون باقى فصائل اليمين الأمريكى وهى من ، ثم تنتج سياسات تكون معبرة عن أحدهما فى بعض الأحيان أو عنهما معا فى أحيان أخرى.

وسوف تنقسم هذه الدراسة إلى جزءين ، يتعرض أولهما للأصول الفكرية لكل من هذين التيارين. بينما يتناول الجزء الثانى موقفهما من قضية العراق تحديداً.

وينبغى الإشارة هنا إلى أنه التزاما من الباحثة بالموضوع الأصلى للدراسة وهو المسألة العراقية ، فإن الجزء الأول لن يكون بمثابة حصر شامل لكن الرؤى الفكرية لهذين التيارين ، وإنما سيركز على أطروحاتهما بشأن السياسة الخارجية دون موقفيهما من القضايا الداخلية.

الرؤى الفكرية :

رغم أن تيارى " المحافظين الجدد " واليمين الدينى قد التقيا اليوم حول عدد من القضايا المهمة، إلا أن هناك اختلافات جوهرية بين التيارين سواء من حيث طبيعة كل منهما أو نشأته أو أصوله الفكرية .

أما تيار " المحافظين الجدد" ، فقد ظهرت أولى إرهاصاته فى الأربعينيات من القرن العشرين وإن بدأ تبلوره الحقيقى فى الستينيات . وتيار المحافظين الجدد هو تيار فكرى نخبوى بالأساس انقلب على الليبرالية الأمريكية . فقد بدأ هذا التيار بمجموعة من الكتاب والمثقفين وأساتذة الجامعات الذين كانوا وقتها ينتمون للتيار الليبرالى ولكنهم انتقدوها فى الأربعينيات بسبب انتهاج سياسات دولة الرفاهية ، والموقف من العلاقة مع الاتحاد السوفيتى منذ بدء الحرب الباردة. غير أن هؤلاء قد ظلوا جميعا على انتمائهم لليبرالية رغم تمردهم على بعض تطبيقاتها حتى بدأت قطيعتهم معها فى نهاية الستينيات بعد مراجعة شاملة لجوهر أفكارها.

فقد شهد المجتمع الأمريكى فى الستينيات أحداثاً كبرى مثلت فى الواقع بداية النهاية لارتباط هؤلاء بالليبرالية الأمريكية فقد كانت تلك الفترة ، هى أوج حركة الحقوق المدنية وماتبعها من إصدار قوانين عدة ترسى أسسا جديدة فى المجتمع، وتم تدعيم برامج دولة الرفاهية من خلال تمرير تشريعات " ليندون جونسون" التى عرفت باسم المجتمع العظيم Great Society ، هذا فضلا عن أنها شهدت أيضا عنفوان الحركة المناهضة لحرب فيتنام . وكانت هذه التطورات تمثل

في الواقع صعود أفكار الليبرالية الأمريكية سواء فيما يتعلق بترتيب أوضاع المجتمع أو بالنسبة للدور الأمريكي في الخارج، وكانت هي المحك الذى أدى بهؤلاء الكتاب والمفكرين إلى مهاجمة الليبرالية والانقلاب عليها واعتبارها مسئولة عن مجموعة من المخاطر التى صارت في رأيهم تحيق بالمجتمع الأمريكي في الداخل والخارج.

غير أن المهم لنا في هذا الإطار هو موقف المحافظين الجدد من رؤية الليبرالية وقتها للدور الأمريكي في الخارج . فكما سبق القول ، كان المحافظون الجدد حتى ذلك الوقت " ليبراليين" لايؤمنون بالانعزالية في السياسة الدولية ، أى يؤيدون أن تلعب بلادهم دورا قويا في العالم . غير أن اختلافهم مع الليبرالية الأمريكية كان جوهره موقفهم من الشيوعية والذى تبلور أثناء حرب فيتنام أكثر من أى وقت مضى.

فقد كان المحافظون الجدد يؤمنون إيمانا عميقا بأن الشيوعية خطر حقيقي يهدد الوجود الأمريكي ذاته. فالشيوعية عندهم أيديولجية صراعية في جوهرها ، ومن ثم لامجال للتوافق أو التعايش معها ، وإنما لابد من القضاء عليها ، وإلا قضت على الولايات المتحدة. وعلى ذلك ، فإن الحرب على الشيوعية لم تكن في نظرهم " حربا باردة" على الإطلاق ، وإنما هى حرب ساخنة بكل المعانى . وهى حرب لايمكن فيها المهادنة أو التوفيق ، فهى معركة وجود ينبغى أن تستخدم فيها كل الوسائل ، بما في ذلك السلاح النووى إذا لزم الأمر، رغم أنه لابد أن يظل الملجأ الأخير (٣) لذلك كانت من أولى معارك السياسة الخارجية التى خاضها هذا التيار ضد الليبرالية هى تلك التى دارت بشأن المكارثية " فإرفنج كريستول " Irving Kristol ، أحد أهم رموز هذا التيار ، رغم أنه وصف مكارثى بالديماجوجية إلا أنه احتفظ بالانتقاد الأكبر لليبراليين الأمريكيين ، فقد اعتبر أن هجومهم على المكارثية لم يكن دفاعا عن الحريات المدنية " بقدر ماكان تعاطفا مع الشيوعيين كتقدميين " من رفقاء الكفاح (٤).

نقطة فاصلة

ثم جاءت حرب فيتنام ومناهضة الليبرالية لها لتمثل نقطة القطيعة . فقد وجد المحافظون الجدد فيما حدث استعدادا لدى الليبرالية " لتقويض النظام العام" إشارة إلى أحداث الجامعات وعجزا عن إدراك حجم الخطر الشيوعى. فقد اعتبروا أن موقف الليبرالية وخاصة اليسار الجديد الداعى الى احتواء الشيوعية إنما يمثل انعزالية غير مقبولة ومهادنة خطرة مع تهديد فعلى يمس الوجود الأمريكي (٥). ومن ثم دافع رموز هذا التيار عن الحرب في فيتنام. إلا أن الأهم على الإطلاق في كل ذلك ، هو أن فيتنام كانت النقطة الفاصلة التى كشفت عن أهم اختلاف بين

المحافظين الجدد والليبرالية ، وأدت بالتالى إلى القطيعة معها وهو الاختلاف المتعلق بنسبية القيم . فقد اعتبر المحافظون الجدد أن الليبرالية عجزت عن الانتصار على الشيوعية ، بل وعن إدراك حجم الخطر الذى تمثله لأنها تقوم على نسبية القيم . فلايوجد شر مطلق أو خير مطلق مما نتج عنه عدم " وضوح أخلاقى" أدى إلى عجز الليبرالية عن إدراك " الشر" الكامن فى الشيوعية (٦).

بعبارة أخرى ، كانت فيتنام قد فجرت أزمة هذا التيار مع الليبرالية ، سواء فيما يتعلق بمنهجها فى التعامل مع قضايا المجتمع ، أو فى التعامل مع السياسة الخارجية وخصوصا الاتحاد السوفيتى.

غير أنه من المهم أيضا الإشارة إلى أن هذا التيار ، كان منذ البداية له موقف مناهض للعمل الدولى الجماعى (أى من خلال المنظمات الدولية) . صحيح أنه كان يرفض الانعزالية ، إلا أنه كان يشك كثيرا فى إمكانية تحقيق المصالح الأمريكية من خلال العمل العولى الجماعى. وقد نبع ذلك من تقويم هذا التيار لدور الأمم المتحدة خصوصا فى الخمسينيات والستينيات . فقد اعتبر رموز هذا التيار أن الأمم المتحدة تجسد أخطاء الليبرالية فى السياسة الخارجية ، لأنها تناهض حقيقة العلاقات الدولية التى تقوم عندهم على القوة . وليس المساواة بين الدول . وعلى ذلك فإن أحد الأخطاء المهمة التى وقعت فيها الإدارات الليبرالية المتعاقبة هى أنها بتعاونها من خلال الأمم المتحدة ، أدت إلى التوسع الشيوعى فى العالم ، وانهيار الهيمنة الغربية عموما والأمريكية على وجه الخصوص . وكان جوهر انتقاد المحافظين الجدد للأمم المتحدة هو أن عملها يتسم بازدواجية المعايير ".. ففى الوقت الذى أدانت فيه حكومة روديسيا البيضاء لم توجه أية إدانة إلى نظام نكروما الدكتاتورى فى غانا.. وبينما طالبت فرنسا وبريطانيا بالخروج من قناة السويس ، لم تطالب الروس بالخروج من بودابست "(٧).

ولم يكن كل ذلك بمعزل عن القضايا الداخلية . فلم تكن مصادفة أن تزامنت حركة الحقوق المدنية فى الداخل مع حركات التحرر الوطنى فى آسيا وإفريقيا ، بل إن حركة الحقوق المدنية كانت قد استهلمت فكر غاندى بشأن العصيان المدنى السلمى ، وكانت تلك هى نفس الفترة التى ارتفعت فيها أصوات اليسار الجديد داخل الولايات المتحدة لمناصرة الحقوق الفلسطينية ، وكان لهذا الموقف تحديدا من الحقوق الفلسطينية تأثيره المهم . فقد كانت الغالبية العظمى من رموز تيار المحافظين الجدد فى ذلك الوقت من اليهود الذين ينتمون لليمين على الساحة اليهودية الأمريكية، وهم الذين اعتبروا فى مناصرة الليبرالية (والأمم المتحدة) للفلسطينيين " معاداة للسامية " ولإسرائيل.

ورغم أن تيار المحافظين الجدد كان قد بدأ بعدد محدود من الكتاب وأساتذة الجامعات .. كان على رأسهم " أرفنج كريستول" و" ناثان جليزر" و" هارفس مانسفيلد" إلا أنه سرعان ما انتشرت أفكاره من خلال الدور الذى لعبه هؤلاء من خلال رئاسة تحرير صحف ومجلات كبرى . كان من أهمها مجلة كومنتارى اليهودية Commentary ثم عدد من المجلات التى أنشأها مثل بابليك انترست Public Interest وناشيونال انترست National Interestوغيرها ، فضلا عن دورهم فى تربية أجيال جديدة ، خصوصاً فى الجامعات من الطلبة الذين آمنوا برؤاهم الفكرية وتخرجوا فى كبرى الجامعات الأمريكية وصاروا اليوم فى مواقع قيادية مهمة.

اليمين الدينى

ولكن ينبغى هنا الإشارة إلى أنه رغم أن هذا التيار صار صاحب نفوذ قوى فى المؤسسات الحاكمة ودوائر صنع القرار، إلا أنه ظل فى واقع الأمر تيارا فكريا نخبويا أى ليس له قاعدة شعبية(٨). ومن ثم فإنه يعتمد على القاعدة الشعبية لتيارات يمينية أخرى ، أهمها تيار اليمين الدينى وتيار اليمين التقليدى ، خصوصا فصائله التى تتفق مع المحافظين الجدد بشأن السياسة الخارجية . ولعل هذا هو السبب الذى يجعل البعض يخلط بين هذه التيارات ، رغم الاختلافات بينها بل والعداء الصريح أحيانا بين رموزها خصوصا بين رموز تيار المحافظين الجدد وتيار اليمين الدينى.

فعلى عكس تيار المحافظين الجدد ، فإن تيار اليمين الدينى تيار شعبى فى جوهره وليس نخبويا . وربما يرجع الخلط لسبب آخر مهم ، وهو تزامن صعود التيارين فى أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات مع تولى ريجان الرئاسة ، بل والتشابه فى الخطاب وقتها من زاوية مناهضة الليبرالية . فرغم أن اليمين الدينى كان قد شهد انحسارا فى الفترة من العشرينيات وحتى الستينيات بعد صعوده المدوى فى القرن التاسع عشر ، إلا أن فترة الانحسار هذه ، لم تكن بمثابة نهايته إذ كانت أقرب إلى مرحلة الكمون ، وإعادة ترتيب الأوراق أكثر من أى شئ آخر ، حتى عاد بقوة على الساحة فى السبعينيات وكان وجه الشبه فى خطابه مع المحافظين الجدد هو مناهضته " للنسبية الأخلاقية " كإحدى سمات الليبرالية الأمريكية ، ولكنه اعتبر ذلك علمانية غير مقبولة فى مجتمع مسيحى أدت إلى انحلال أخلاقى وانهيار للقيم الدينية.

وهذا هو فى الواقع أحد الاختلافات الجوهرية بين المحافظين الجدد واليمين الدينى . فرغم أن الاثنين يؤمنان بمسألة " البعد الأخلاقى" وأهميته فى السياسة الداخلية والخارجية معا ، إلا أن تيار المحافظين الجدد تيار علمانى يقيم هذا " الوضوح الأخلاقى " على أساس من منظومة قيم تأتى من التقاليد وليس من الدين . إلا أن نقطة الالتقاء الرئيسية بين الفريقين هى أن تيار المحافظين الجدد

ليس فقط تيارا نخبويا من حيث الطابع وإنما من حيث الفكر أيضا ، فهو يؤمن بأهمية دور النخبة الفكرية فى المجتمع ، واختلاف هذا الدور عن أدوار باقى القطاعات . فهو على سبيل المثال يرى أنه من الخطر بمكان أن يطلع عوام الناس على الحقيقة كاملة لأن هذا قد يؤدى إلى فوضى وغليان ، ومن ثم لابد أن تظل الحقيقة الكاملة مقصورة على النخبة الفكرية فقط القادرة على التعامل معها بحكمة وفاعلية ، بينما يفضل أن تظل عقلية الرجل البسيط محكومة بالتقاليد ، ولامانع من أن تحكمها القيم الدينية بدلا من التقاليد أو كليهما فهى تجعل العواطف الشعبية تحت السيطرة (٩).

بعبارة أخرى فإن تيار المحافظين الجدد واليمين الدينى يؤمنان بمسألة " الوضوح الأخلاقى" وإن وصل كل منهما إليها من رافد مختلف وهو مايؤدى فى أحيان كثيرة إلى الاتفاق حول سياسات بعينها ولكنه يؤدى أيضا إلى خلافات ، خصوصا بشأن أولويات القضايا . فتيار اليمين الدينى كان حتى نهاية الثمانينيات يركز تركيزا أساسيا على قضايا الداخل ، وبالتحديد قيم المجتمع مما جعله يضع قضايا مثلَ الإجهاض ، وإقامة الصلوات فى المدارس واللواط على قمة أولوياته . إلا أن نقطة الالتقاء كانت دوما العداء للشيوعية وإن كان على أساس دينى ووطنى . فالشيوعية كانت بالنسبة لهم تمثل " التهديد الملحد لأمريكا المسيحية"(١٠).

إلا أن أطروحات اليمين الدينى تذهب فى الواقع إلى ماهو أبعد من ذلك ، إذ إن له موقفاً من الحداثة ذاتها. فهذا التيار بإيماناته العقيدية يرفض فكرة تقدم البشرية وتحسين أوضاعها مع مرور الزمن . فهو فى جوهر اعتقاداته يؤمن بأن أحوال البشرية تزداد سوءا مع مرور الوقت . والبشر وحدهم عاجزون عن تحسين الأوضاع ووقف التدهور ، فالأمر يحتاج إلى تدخل قوة عليا . ومن ثم فإن عودة السيد المسيح إلى الأرض هى وحدها التى تمثل الإنقاذ والخلاص (١١).

ويؤمن هذا التيار إيمانا حرفيا بعودة السيد المسيح ليحكم العالم لألف عام . " فسوف يحكم " أعداء المسيح " العالم أولا ثم يعود اليهود إلى فلسطين ويعتنق بعضهم المسيحية . بعد ذلك يتعرض اليهود لاضطهاد واسع النطاق ، ثم يعود السيد المسيح ويكون جيشا قويا وتقع معركة " هرمجدون" التى سوف يهزم فيها المسيح قوى الشر وبتحقيق الانتصار يبدأ حكم المسيح فى القدس لمدة ألف عام "(١٢).

والمسألة بالنسبة لهذا التيار لاتتوقف عند مجرد الاعتقاد بتلك العودة . فهذا الاعتقاد هو بمثابة الأساس لقراءة الأحداث العالمية . فالكتاب المقدس عندهم لايعرض فقط لتاريخ البشرية وإنما يقدم خريطة لأحداث المستقبل ، وبالتالى الدور الذى ينبغى للمؤمنين أن يلعبوه من أجل أن تتحقق تلك النبوءة ويتم إنقاذ البشرية (١٣).

ومن هذا المنطلق نفسه يؤيد هؤلاء إسرائيل تأييدا مطلقا . فرغم أن الكثيرين من رموز هذا التيار اتهموا بالعداء للسامية ، إلا أن أحدا لم يشكك فى تأييدهم لإسرائيل . فتجمع اليهود فى الأرض المقدسة ، أحد شروط تحقق النبوءة كلها . ثم أن المفاوضات مع الفلسطينيين لاجدوى منها من عدة زوايا ، فهى أولا مناهضة للنبوءة ، فإسرائيل ستظل فى عداء مع " أعداء المسيح" وسيتعرض اليهود لاضطهاد واسع النطاق . ثانيا أن البشر عموما عاجزون عن تحسين أوضاعهم.

ورغم أن إسرائيل ودعمها ظل دوما قضية مهمة لدى هذا التيار ، إلا أنه خصوصا منذ بداية التسعينيات بدأ يلعب دورا مهما فى عدد من قضايا السياسة الخارجية الأخرى ، فقد كان هذا التيار من أهم القوى التى أدت إلى صدور قانون الاضطهاد الدينى فى ١٩٩٨ ، وهو الذى لعب دورا أساسيا فى فرض العقوبات على إيران وكان أيضا وراء قانون " السلام فى السودان " الذى صدر فى أكتوبر ٢٠٠٢.

وقد اكتسب هذا التيار قوته بفعل التطور التكنولوجى حيث صار له عدد هائل من برامج التليفزيون والراديو ، بل وصارت لهم شبكات مستقلة خاصة بهم ، فضلا عن شبكة هائلة من المريدين يتم التواصل معهم عبر الكمبيوتر (١٤).

السيطرة على الكونجرس

ورغم أن منظمة " الأغلبية الأخلاقية " Moral Mojority التى أنشأها القس جيرى مولويل عام ١٩٧٩ كانت قد لعبت دورا محوريا فى تسليط الأضواء على هذا التيار ، إلا أن نفوذه الحقيقى على المستوى الشعبى إنما يرجع الفضل فيه إلى منظمة الائتلاف المسيحى Christian Coalition التى أنشأها بات روبرتسون بعد فشل حملته لمنصب الرئاسة فى ١٩٨٨ وقد تولى هذه المنظمة منذ ١٩٩٣ وحتى ١٩٩٧ شاب لم يكن عمره يتعدى الخامسة والعشرين وقتها يدعى " رالف ريد" وهو الذى يرجع إليه الفضل الرئيسى فى تحويل هذا التيار من خلال منظمته إلى قوة بالغة الفاعلية فى العمل السياسى الأمريكى. وكانت هذه المنظمة هى إحدى المنظمات المهمة التى لعبت دورا محوريا فى تحقيق الفوز السابق للجمهوريين فى انتخابات ١٩٩٤ التشريعية التى نجحوا فيها فى السيطرة على الأغلبية فى الكونجرس بمجلسيه لأول مرة منذ أربعين عاما (١٥).

إلا أن المهم بالنسبة لنا فى هذا الإطار هو أن " رالف ريد " كان قد سعى إلى توسيع نطاق نفوذ هذا التيار عبر استمالة قطاعات أخرى . فدخل فى تحالفات مع عدد من المنظمات الكاثوليكية اليمينية ، وعدد من منظمات اليهود الأرثوذكس أيضا (١٦).

وينبغى الإشارة إلى أن هذا التيار له علاقات قوية مع اليمين الإسرائيلى . بل أصبح تقليدا متعارفا عليه منذ عهد مناحم بيجين أن يزور زعماء الليكود هذه المنظمات فى واشنطن قبل لقائهم بالمسئولين الأمريكيين (١٧).

وهكذا يتضح أن هناك نقاط اختلاف بين تيارى المحافظين الجدد واليمين الدينى . إلا أن هذا الاختلاف يتضاءل فى السياسة الخارجية ، بالمقارنة بالسياسة الداخلية . صحيح أن المنطلقات مختلفة ، إلا أن كليهما اعتبر الشيوعية خطرا يحيق بالوجود الأمريكى ذاته ؛ وأيد وجود جيش قوى وميزانية عسكرية كبيرة ، بل إن كليهما يدعم إسرائيل بشكل مطلق ، ويؤيد سياسات الليكود على وجه التحديد . لذلك يتفق هذان التياران على الموقف من الكثير من القضايا الخارجية وهو الذى جعلهما ركيزة معا لحكم إدارة بوش . فمن ناحية يوجد لفكر المحافظين الجدد نفوذ قوى داخل هذه الإدارة ، خصوصا فى وزارة الدفاع ومجلس الأمن القومى . ومن ناحية أخرى ؛ لايملك بوش استعداء اليمين الدينى الذى يمثل أحد القطاعات المهمة التى تحسم الانتخابات لصالح الجمهوريين عندما يضيق الهامش بين الحزبين . وفى الواقع فإن هذه الإدارة أشبه فى ذلك إلى إدارة ريجان منها إلى إدارة بوش الأب . فبوش الأب كان ينتمى للتيار التقليدى المعتدل فى الحزب الجمهورى لذلك كان توليه بمثابة نقطة أفول لكلا التيارين بعد المكاسب التى حققوها أثناء حكم ريجان . بل إن هيمنة تيار اليمين الدينى على مقدرات الحزب الجمهورى فى المؤتمر العام للحزب عام ١٩٩٢ كانت أحد الأسباب الجوهرية لهزيمة بوش الأب ".

لماذا العراق ؟

باختفاء الاتحاد السوفينى ، انهار العدو الذى وحد تيارات اليمين حول هدف واحد ، ومن ثم حدثت فجوة بين هذه التيارات بشأن طبيعة الدور الأمريكى فى عالم جديد . وأنذر هذا الوضع بحدوث نكسة لليمين الأمريكى عموما بعد الصعود الذى حققه فى عهد ريجان . وبالفعل حدثت مواجهات عدة واتهامات متبادلة خصوصا بين تيار المحافظين الجدد وتيار اليمين الدينى . فقد اعتبر الثانى أن الأول بفكره العلمانى يمثل خطراً على حركة اليمين (١٨). إلا أن أحداث ١١ سبتمبر قد أعادت لتيار اليمين بفصائله المختلفة قوته من جديد . ففى غياب عدو واضح ، كان من الصعب على تيارات تستخدم خطاب الوطنية المتشددة أن تكسب أرضية شعبية ، وهى التى راح بعضها ، خصوصا اليمين الدينى ، يركز على " أعداء الداخل " المسئولين عن الانهيار الأخلاقى . أما وقد أصبح هناك عدو جديد واضح فقد صار من السهل استخدام خطاب التشدد، بل واتهام الآخرين بالتهاون إزاء الخطر الجديد ، بالضبط كما كان الحال زمن الشيوعية . والمتابع لأدبيات

تيارى المحافظين الجدد واليمين الدينى يلمح بوضوح إعادة إنتاج الخطاب نفسه ، كل مافى الأمر هو أنه قد تم تكييفه ليتناسب مع العدو الجديد.

ولكن لماذا العراق تحديدا ؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد أولا القول إنه فى مجال السياسة الخارجية ، فإن تيار المحافظين الجدد أكثر ثقلا من الناحية الفكرية من تيار اليمين الدينى . ومن ثم فإن الأطروحات الفكرية الرئيسية فيما يتعلق بالعراق ، هى فى الواقع نتاج فكر الأول . أما اليمين الدينى فهو الذى يمثل الدعم الشعبى لهذه الأفكار . فكما سبق القول فإن تيار المحافظين الجدد ليس تيارا له قاعدة شعبية وإنما يعتمد على باقى التيارات اليمينية . ومنذ أحداث سبتمبر أصبح اليمين الدينى أهم قاعدة له ؛ لأن هذا التيار هو الأكثر إيمانا بمسألة " الوطنية " الأمريكية فى أكثر أشكالها تطرفا . وهو يؤمن أيضا بضرورة وجود دفاع قوى لخوض المعركة مع " أعداء المسيح " حين يحين موعدها (١٩) .بعبارة أخرى هو التيار الذى تلقى مقولات المحافظين الجدد لديه ترحيبا أوسع من باقى تيارات اليمين.

إلا أن تيار المحافظين الجدد اعتمد أيضا على الذعر الذى أصاب المواطن الأمريكى عموما بعد ١١ سبتمبر ، ورغبته فى تحقيق أمنه بأى ثمن. فقد قوضت أحداث سبتمبر واحدة من أهم مسلمات الثقافة السياسية الأمريكية ذاتها. فالأمريكيون اعتقدوا طويلا أن شطآن أمريكا الطويلة إنما تحميها من الفوضى الدائرة فى العالم ، وبالتالى تجعلها فى مأمن من المخاطر التى تحدث به . ومن ثم كان ١١ سبتمبر بمثابة لحظة فارقة انهارت فيها تلك المسلمة فشعر المواطن العادى بحالة انكشاف غير مسبوقة ، كانت هى المسئولة عن تمرير عشرات من القوانين والقرارات التى تقوض الحريات المدنية وتتوسع فى الصلاحيات الممنوحة لأجهزة الأمن تحت مسمى " حماية للأمن القومى".

ومن ثم فقد استخدم المحافظون الجدد فيما يتعلق بالعراق نفس أسلوب إثارة ذعر المواطن العادى الذى استخدم منذ ١١ سبتمبر لتمرير قرارات أخرى . ومن هنا أتت المحاولات المستميتة التى بذلتها الإدارة للربط بين النظام العراقى وتنظيم القاعدة. إلا أن هذا كله كان خطابا للاستهلاك الشعبى ، ولايعبر عن الأهداف الحقيقية لضرب العراق ، والتى تتعلق بالاستراتيجية الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط عموما.

المتسامحون مع الكراهية

فعند المحافظين الجدد ، فإن غزو العراق إنما يذهب إلى ماهو أبعد من العراق نفسه. فالعراق هو الخطوة الأولى نحو إعادة رسم خريطة العالم العربى بأسره . والفكرة هنا

مماثلة لفكرة الدومينو التى سادت فى زمن الشيوعية ولكن معكوسة . ففى ذلك الوقت كانت فكرة الدومينو تستخدم للتدخل فى أى موقع نفوذ سوفيتى لئلا يؤدى ذلك النفوذ لوقوع دولة أخرى مجاورة تحت النفوذ الشيوعى. أما هذه المرة فالمطلوب أن تتدخل أمريكا حتى يحدث التداعى ، أى حتى تبدأ لعبة الدومينو . فهم يرون أنه بمجرد غزو العراق وتغيير النظام هنا ، وهو الذى يصرون على وصفه " بالتحرير " ، ثم إقامة نظام ديمقراطى علمانى ، فإن النظام الجديد فى العراق سوف يمثل تحديا قويا لباقى النظم العربية فتنتقل " عدوى" التحرير إليها .. وهو الأمر الذى سيحدث انقلابا فى المنطقة سيكون بالضرورة لصالح الولايات المتحدة ، خصوصا فى دول الخليج ، ولم تكن بمنأى عن هذه الفكرة تلك الحملة التى شنها هذا التيار فى صيف ٢٠٠٢ على السعودية ، وبدرجة أقل على مصر. بل إن التخطيط لإعادة رسم الخريطة العربية لس سرا ولايدور وراء الكواليس فهو معلن ومنشور منذ شهور طويلة.

ولعل أول تعبير رسمى عن هذه الأفكار كان ذلك الذى جاء فى خطاب الرئيس الأمريكى فى وست بوينت فى يونيو الماضى . فليس صحيحا أن أخطر ماجاء فى هذا الخطاب كان الحديث عن " الضربات الوقائية" ، لتحل محل سياسة الاحتواء، فالأخطر فى الواقع هو ماقاله عن " دول تعارض الإرهاب ولكنها تتسامح مع الكراهية التى تقود للإرهاب ، وهو أمر لابد أن يتغير ". ورغم أن بوش لم يحدد وقتها تلك الدول بالاسم ولاطريقة التغيير، إلا أن خطابه هذا تلاه بعد أقل من أسبوع خطاب ألقاه " وليام كريستول " أحد أقطاب تيار المحافظين الجدد فى إيطاليا لم يقصر فيه قائمة أعداء أمريكا على دول " محور الشر" وإنما شملت القائمة دولا صديقة وحليفة لأمريكا . ثم دعا كريستول فى خطابه صراحة لتغيير نظام الحكم فى السعودية.

وفى شهر يوليو ، نشرت مجلة كومنتارى اليهودية المعروفة بصلاتها الوثيقة بالمحافظين الجدد والليكود الإسرائيلى ، مقالا كان عنوانه " أعداؤنا السعوديون" قال كاتبه صراحة إن أهمية قضية العراق إنما تذهب لما هو أبعد وأهم " من مجرد الشر الذى تمثله اليوم إلى الخير الذى قد تمثله غدا .. إن الحل الوحيد للتخلص من أمثال بن لادن وعرفات وصدام حسين هو السعى لإحداث عدم التوازن إن لم يكن الفوضى الكاملة " فى تلك المنطقة من العالم (٢١).

بعبارة أخرى فإن كل المحاولات العربية لإقناع أمريكا بأن غزو العراق سيؤدى إلى فوضى فى المنطقة ليست مجدية ، فهذه الفوضى هى بالضبط مايسعى إليه تيار المحافظين الجدد من وراء فكرة غزو العراق وتغيير النظام فيه ،لأن هذه الفوضى هى التى تمكن أمريكا من إعادة ترتيب المنطقة على أسس جديدة تماما . وكما اتضح مما سبق ، فإن إسرائيل ومصالحها ليست بمنأى عن كل ذلك أيضا . فلم تكن مفاجأة أن يشهد بنيامين نتنياهو أمام لجان الكونجرس الأمريكى فيردد لأعضاء الكونجرس نفس مقولة الدومينو التى يستخدمها المحافظون الجدد ، هذا ناهيك عن دعوة نتنياهو أصلا دون غيره للإدلاء بدلوه فى مسألة العراق !

وتيار المحافظين الجدد بصهيونيته الليكودية ، هو الذى كان وراء ترتيب أولويات هذه الإدارة منذ أن وصلت للحكم أى قبل شهور طويلة من أحداث سبتمبر على نحو يضع العراق قبل فلسطين ، وهو النهج الذى استخدمته الإدارة طوال الوقت إلا حين تضطر اضطرارا للاهتمام بقضية فلسطين (كما حدث فى إبريل ٢٠٠٢)، ثم جاءت أحداث سبتمبر فاستغلها هذا التيار لدمغ الرئيس عرفات بالإرهاب ، واعتبار أن إسرائيل تخوض المعركة نفسها التى تخوضها الولايات المتحدة ذاتها ضد الإرهاب . واستخدم هذا التيار مسألة " الوضوح الأخلاقى" للضغط على الإدارة بشأن التعامل مع

القضيـة علـى أسـاس أنـه لايجـوز التفـاوض أو حتـى اللقـاء مـع مايسـمونه " الإرهـاب الفلسطينى " وضرورة إطلاق يد حكومة شارون بالمطلق للقضاء عليه !

وقد كان هذا التيار ورموزه داخل الإدارة هو المسئول عن إفشال مهمـة " كولـين باول " فى المنطقة فى ربيع ٢٠٠٢، حيث وصل وزيـر الخارجيـة الأمريكـى إلى الشـرق الأوسط مكتوف اليدين فى واشنطن ، بل وشن المحافظون الجدد فى وزارة الدفاع حملـة محمومة عليـه فـى واشـنطن أثنـاء وجـوده فـى المنطقـة تتهمـه بأنـه " تخطـى الخطـوط الحمراء، ومال نحو الفلسطينيين دون تفويض له بذلك "(٢١).

ولم تنته معارك هذا التيار مع جناح باول ـ تينيت الذى عارض مسألة غزو العـراق . بل وصلت الحملة إلى نشـر ١٢ مقـالا فـى صحـف كـبرى اتـهمت بـاول ، بعـدم الـولاء للرئيس وطالبت بإقالته أو استقالته (٢٢) .وقد تخطى الأمر مجـرد النشـر فـى الصحـف ليتحول إلى ضغوط على العاملين فى وكالة المخـابرات المركزيـة لمراجعـة أسـلوب تحليـل المعلومات على نحو يؤدى لإيجاد علاقة بين النظام العراقى وتنظيم القاعدة (٢٣).

ولكن حين نجح بـاول فـى دفـع الرئيـس الأمريكـى للجـوء إلى الأمـم المتحـدة اعتـبر المحافظون الجدد أن قرار مجلس الأمن ١٤٤١ كان بمثابة " توريـط" لبـوش مـن جـانب باول لتقييد حرية حركته فـى غـزو العـراق وتحويـل المسـألة برمتـها إلى " نـزع أسـلحة العراق " وليس تغيـير النظـام " (٢٤). والحملـة الدائـرة اليـوم علـى قـدم وسـاق تسـعى بالأساس لإعادة تركيز الخطاب من جديد على أهمية " تغيير النظام العراقى ".

أما بالنسبة لفلسطين ، فإن المقولة التى يرددها المحافظون الجدد مؤداهـا أن العـراق هو مفتاح الحل لقضية فلسطين ، حيث ستؤدى إلى إضعـاف الفلسـطينيين ، وإجبـارهم على قبول تنازلات جديدة أمام الليكود.

ومن ثم فإن التطورات فى المرحلة المقبلة لن تتوقف على ماسوف يحدث بـين النظـام العراقى ومفتشى الأمم المتحدة ، ولا على ماسوف يحدث فى أية اتصالات بين الأطـراف المختلفة بشأن فلسطين ، بقدر ماسوف تتوقف على جولات الصراع المستمر بين جنـاحى الإدارة : جناح باول ـ تينيت وجناح تشينى رامسفيلد.

1. Woodward, A Course of Confident Action, The Washington Post, Nov.19,2002. Nov.21,2002-12-19 www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A7596-2002Nov18
2. George H. Nash, The Conservative Intellectual Movement in America, (Delaware: Intercollegiate Studies Institute, 1998) P.250
3. Ibid
4. Irving Kristol, Neo-Conservatism, The Autobiography of an Idea, (Chicago: Ivan Dee Publihers,1999) P.19
5. Ibid pp.24 -26
6. George H.Nash, op.cit., p.250
7. Ibid p.248
8. Douglas Koopman, Hostile Takeover, The House Republican Party 1980-95 (Maryland: Rowman and Littlefield Publishers Inc., 1996) pp.50-75
9. Irving Kristol, p.8
10. George M. Marsden, Fundamentalism and American Cutlure, (Oxford: Oxford University Press, 1980) p.209
11. Catherine L.Albanese, America: Religious and Religion, (Belmont: Wadsworth Publishing Company, 1999) p.370
12. George M. Masden, op.cit., pp.52-3
13. Catherine L. Albanese, op.cit., p.372
14. Ibid
15. Nina J. Easton, Gang of Five, (New York: Simon and Schuster, 2000, pp.111-134
16. Catherine L. Albanese, op.cit. p.372
17. Tony Smith, Foreign Attachments, (Massachusetts: Howard University Press, 2000) p.120
18. George Nash, op.cit., pp.333-4
19. Catherine L. Albanese, op.cit., p.379
20. Victor Davis Hanson, Our Enemies, The Saudis, Commentary, Vol 114, no 1, July / August 2002, pp.23-28
21. Bob Woodward
Mind, Washington Post Online Nov 17, 2002. Nov 18,2002-12-19
www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A64603-2002Nov16.htm
22. Ibid

23. David Corn, Are Bush Officials Exploiting Bali Blast and Leaning on CIA? The Nation, www.thenation.com/capitolgames/index.html
24. Wiliam Kristol & Robert Kagan, The UN Trap? The Weekly Standard, Vol 008, no 10, Nov.18, 2002, p.2

الأهالى

جريدة كل الوطنيين

تصدر صباح كل أربعاء

رئيس مجلس الإدارة : رفعت السعيد   رئيس التحرير : نبيل زكى

مبادرات إدارة بوش:

مطلوب تدمير العرب!

■ أحمد عبدالغنى

خلال الشهور القليلة الماضية، أطلقت الإدارة الأمريكية مبادرتين بشأن الشرق الأوسط. المبادرة الأولى أعلنها الرئيس چورچ بوش باسم «خريطة الطريق» فى شهر أكتوبر عام ٢٠٠٢. والهدف الظاهرى منها أنها تؤدى، كما قال بوش، إلى قيام دولة فلسطينية عام ٢٠٠٥. لكنه ترك كل مواصفات هذه الدولة دون تحديد قاطع، بينما فرض على الفلسطينيين شروطا صارمة قبل أن تقوم هذه الدولة. أما المبادة الثانية، فهى تلك التى أعلنها كولين باول وزير الخارجية الأمريكى فى «مؤسسة التراث» فى واشنطن فى شهر ديسمبر، تحت اسم «مبادرة الشراكة الأمريكية ـ الشرق أوسطية: بناء الأمل فى السنوات القادمة». وفى

هذه المبادرة يدعو كولين باول إلى ما أسماه إصلاحات اقتصادية وسياسية وتعليمية. وتبدو مبادرة باول وكأنها جزء مكمل لمبادرة بوش «خريطة الطريق».

سياسة ثابتة

وبالنسبة لأى إنسان عربى، ومن واقع الخبرة المريرة مع الولايات المتحدة، وعدائها للعالم العربى، وتأييدها الأعمى لإسرائيل، فإن هذا الإنسان العربى لا يأمل خيرا من من أى تحرك أمريكى فى قضايا الشرق الأوسط، ولا يمكن أن يتوقع أن تنتصر واشنطن لقضاياه العادلة، وحقوقه المشروعة، أو أن تردع عميلتها إسرائيل، وتجبرها على التوقف عن الجرائم التى ترتكبها يوميا فى حق الشعب الفلسطينى. وما يزيد من عمق عدم ثقة الإنسان العربى فى الولايات المتحدة، أن المبادرتين الأمريكيتين الأخيرتين، تأتيان، بينما الدبابات الإسرائيلية تجتاح كل يوم المدن والقرى الفلسطينية، وتعمل فيها قتلا وتدميرا، وتجريفا للأراضى، واقتلاعا للأشجار، دون أن تتضمن أى من المبادرتين ـ مبادرة بوش أو مبادرة باول أية إدانة للجرائم الإسرائيلية، أو مطالبة قاطعة وحاسمة بوقف

هذه الجرائم.

ومن يتأمل المبادرتين الأمريكيتين، يدرك على الفور أن سياسة الولايات المتحدة تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي لم تتغير، ولا ينتظر أن تتغير، خاصة في ظل إدارة الرئيس جورج بوش، التي يسيطر عليها اليمين المتطرف المتحالف مع القوى الصهيونية، داخل إسرائيل وخارجها. المتأمل للمبادرتين سيشعر بأن السياسة الأمريكية ستظل، في المستقبل المنظور، على انحيازها لإسرائيل ضد المصالح والحقوق العربية، رغم أن هدف المبادرتين الإيهام بأن السياسة الأمريكية تتجه نحو قدر من التوازن بين العرب وإسرائيل.

«خريطة الطريق»

من الفقرة الأولى للمبادرة، يكتشف الإنسان النظرة الأمريكية الظالمة للقضية المحورية في الشرق الأوسط، وهي القضية الفلسطينية، والتجاهل الكامل والمتعمد للمحنة القاسية التي يعيشها الشعب الفلسطيني.

تقول الفقرة: «لفترة طويلة من الزمن، عاش المواطنون في الشرق الأوسط وسط الموت والخوف. كراهية قلة تحتجز آمال الكثرة كرهينة. قوى التطرف والإرهاب تحاول قتل التقدم والسلام بقتل الأبرياء. وهذا يلقي بظلال قاتمة على منطقة بأسرها. يجب أن تتغير الأمور في الشرق الأوسط من أجل الإنسانية. يستحيل أن يعيش الإسرائيليون في رعب. ويستحيل أن يعيش الفلسطينيون في فساد سياسي واحتلال. والموقف الراهن لا يبعث على الأمل في تحسن الحياة. سيظل المواطنون الإسرائيليون يقعون ضحايا للإرهابيين، ومن ثم فستظل إسرائيل تدافع عن نفسها، وسيزداد وضع الشعب الفلسطيني بؤسا أكثر فأكثر.

هكذا.. يختصر الرئيس الأمريكي المشكلة في الشرق الأوسط في إرهاب فلسطيني، ورعب يعيش في ظله «المواطنون الإسرائيليون»، ضحايا الإرهاب، وبالتالي يضطرون إلى الدفاع عن أنفسهم. لا شيء عن الاحتلال الذي تدينه كل القوانين والمواثيق الدولية. لا شيء عن عمليات القتل التي يتعرض لها الفلسطينيون، رجالا ونساءً وأطفالا، على يد جيش مدجج بأحدث الأسلحة الأمريكية. لا شيء عن تدمير البنية الأساسية للمجتمع الفلسطيني الاقتصادية والتعليمية، ولا عن خطر التجول الخانق الذي يعيش تحت وطأته الشعب الفلسطيني بشكل شبه مستمر.

ورغم أن بوش يتحدث عن تأييده لقيام دولتين (إسرائيلية وفلسطينية) تعيشان جنبا إلى جنب في سلام وأمن، فإنه يتحدث في كل فقرة من فقرات مبادرته عن الإرهاب الفلسطيني. وهو يتهم السلطة الوطنية الفلسطينية بشكل مباشر وصريح بمساندة الإرهاب عندما يقول «واليوم فإن السلطات الفلسطينية تشجع الإرهاب ولا تعارضه وهذا غير مقبول». ويدعو بوش الشعب الفلسطيني إلى تغيير القيادات الفلسطينية، و«انتخاب زعماء جدد لا يشينهم الإرهاب». ويطالب بوش

أجهزة الأمن الفلسطينية إلى تفكيك بنية الإرهابيين، كما يطالب الدول العربية بوقف التمويل العام والخاص للمجموعات التى تؤيد أعمال العنف والإرهاب.

وتتضمن مبادرة بوش ثلاث مراحل، تنتهى عام ٢٠٠٥ بتسوية شاملة ونهائية للصراع الفلسطينى ـ الإسرائيلى، بحيث يسير التقدم فى المراحل الثلاث، مع التزام الجانب الفلسطينى بالإجراءات الأمنية لوقف العنف. وتشير المبادرة إلى أن التسوية النهائية إلى قرارات مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ و١٣٩٧، وإنهاء «الاحتلال الإسرائيلى الذى بدأ عام ١٩٦٧ والتوصل إلى تسوية معقولة لقضية اللاجئين، والتفاوض حول القدس بحيث توضع فى الاعتبار الاهتمامات السياسية والدينية للطرفين، وتتوفر حماية للمصالح الدينية لليهود والمسيحيين والمسلمين فى العالم.

الهدف.. الانتفاضة

وتدعو المبادرة فى النهاية الدول العربية إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل، وضمان أمن جميع دول المنطقة، فى إطار سلام شامل عربى ـ إسرائيلى. وتتضمن المبادرة نقاطًا أخرى هى فى معظمها سلبية بالنسبة للعرب.

ومن الواضح أن مبادرة بوش لا تهدف إلى تسوية عادلة للصراع الفلسطينى ـ الإسرائيلى أو العربى ـ الإسرائيلى، بقدر ما تهدف إلى تحقيق أهداف أمريكية وإسرائيلية. ويمكن إبداء الملاحظات التالية على المبادرة:

أولا: أن إدارة بوش أهملت منذ توليها السلطة قبل عامين، قضية الشرق الأوسط، وتركت إسرائيل تعربد فى الأراضى الفلسطينية كما تشاء. وهذا يحمل على القول بأن اهتمامها المفاجئ بالقضية، كما ظهر فى مبادرة الرئيس الأمريكى، فى الوقت الذى تخطط لضرب العراق، يهدف إلى كسب تأييد الدول العربية لخططها لمهاجمة العراق، عن طريق الإيهام بأنها تتخذ موقفا متوازنا فى الشرق الأوسط.

ثانيا: أن المبادرة بتركيزها على المطالبة بوقف ما تسميه «بالعنف والإرهاب» يعنى ببساطة أن الإدارة الأمريكية تريد وقف الانتفاضة، وحرمان الشعب الفلسطينى من حقه المشروع فى النضال لتحرير أراضيه، واستعادة حقوقه المشروعة.

ثالثا: أن إلحاح الرئيس بوش فى المطالبة بإجراء انتخابات لاختيار قيادة فلسطينية جديدة، هى مطالبة مستحيلة التحقيق، فى ظل الاحتلال وحظر التجول المستمر.

رابعا: أن دعوة بوش لاختيار رئيس وزراء فلسطينى (أى تهميش الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات)، هدفه فى هذه الظروف إحداث شقاق فى الصف الفلسطينى، بما يتيح الفرصة لإسرائيل للمضى فى جرائمها ضد الفلسطينيين.

خامسا: أن المبادرة لم تطرح على إسرائيل أية مطالب محددة سواء فيما يتعلق بإنهاء الاحتلال أو تصفية المستوطنات. وإشارتها لقرارات مجلس الأمن لا تعنى شيئا لأن

إسرائيل، اعتادت أن تضرب عرض الحائط بهذه القرارات. أما إشارتها إلى المبادرة السعودية، التى أصبحت مبادرة عربية، فهى تأتى من باب النفاق. فالولايات المتحدة، رغم ترحيبها بالمبادرة السعودية فى البداية، فقد أهملتها بعد ذلك كى يطويها النسيان. والدليل على ذلك أن واشنطن لم تعتبر المبادرة السعودية أساسا يمكن البناء عليه، بل قدمت مبادرة جديدة تماما للتسوية هى مبادرة بوش، «خريطة الطريق».

سادسا: على الرغم من أن المبادرة الأمريكية تزعم أن هدفها هو الوصول إلى تسوية نهائية وشاملة، فإنها تتجاهل حقوق سوريا ولبنان لاستعادة حقوقها وأراضيها المحتلة. ومع ذلك، فإن المبادرة تطالب الدول العربية بالتطبيع مع إسرائيل.

مبادرة «خريطة الطريق» إذن، لا تخرج عن الخط الأساسى لإدارة چورچ بوش إلا شكليا فقط، بينما تظل هذه الإدارة ملتزمة بالانحياز الكامل لإسرائيل، والوقوف إلى جانب حكومة شارون فى جرائمها الدموية ضد الفلسطينيين. لذلك فإنه حتى صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية انتقدت المبادرة، وقالت «إنه يبدو أن بوش يقول لشارون إنه مطلق اليدين فى إعادة احتلال كل الضفة الغربية إلى أن تقوم فلسطين ديمقراطية. فكيف يمكن أن نتوقع من الفلسطينيين إجراء انتخابات أو القيام بإصلاحات، بينما هم محاصرون بشكل كامل؟».

وعلى الرغم من الانحياز الكامل والصارخ لإسرائيل الذى تعبر عنه مبادرة «خريطة الطريق»، فإن المسئولين فى حكومة شارون يعترضون عليها. فقد وصف بنيامين نتنياهو وزير الخارجية المبادرة بأنها غير مناسبة. أما شاؤول موفاز وزير الدفاع فقد صرح بأن المبادرة، تسبب مشاكل لإسرائيل، وأنها مليئة بالثغرات الأمنية التى تهدد الكيان الإسرائيلى. فحكومة شارون لا تريد أية تسوية مع الفلسطينيين من أى نوع. بل هى تريد أن تستمر فى اعتداءاتها ومذابحها ضد الشعب الفلسطينى حتى تحين الفرصة المناسبة لترحيل أكبر عدد من الفلسطينيين من الضفة الغربية إلى الأردن، حتى لو خلق ذلك اضطرابات فى المملكة الأردنية، أو إلى العراق بعد الإطاحة بالنظام العراقى، وإقامة نظام حكم عميل.

ويبدو أن المسئولين فى حكومة شارون مطمئنون إلى أن اليمينيين المتطرفين فى إدارة بوش، ومن يسمون بالمحافظين الجدد، سيؤيدون الأهداف الصهيونية على طول الخط، والجرائم الإسرائيلية المروعة، حتى لو أدت إلى إبادة الجزء الأكبر من الشعب الفلسطينى.وأول دليل على ذلك تأجيل بدء تنفيذ مبادرة خريطة الطريق.

مساندة الاستبداد

لكن من المؤكد أن الرئيس بوش وأركان حكومته واهمون، إذا تصوروا أن مبادرة خريطة الطريق سوف تخدع الشعوب العربية،

وتخفف من معارضتها للسياسة الأمريكية، ورفضها للتوجهات الأمريكية سواء بالنسبة للقضية الفلسطينية أو العراق.

فقد كشف استطلاع للرأى أجراه مركز أبحاث الشعوب والصحافة بإشراف مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السابقة، عن تدهور صورة الولايات المتحدة فى العديد من الدول عام ٢٠٠٢ بالمقارنة بعام ٢٠٠٠. وفى الدول التى ظهرت فيها نتائج الاستطلاع تبين أن صورة الولايات المتحدة تدهورت فى ١٩ دولة من بين ٢٧ دولة. وقد تدهورت هذه الصورة بصفة خاصة فى الدول الإسلامية. ففى تركيا هبطت نسبة الأشخاص الذين كانت لديهم صورة إيجابية عن الولايات المتحدة بمقدار ٢٢ نقطة إلى ٣٠٪. وفى باكستان كان الهبوط ١٣ نقطة إلى ١٠٪. وفى مصر بلغت نسبة الذين لديهم صورة سلبية فى الولايات المتحدة ٦٩٪، وفى الأردن ٦٩٪. وكشف الاستطلاع أيضا أن أغلبية الأشخاص الذين شملهم هذا الاستطلاع فى فرنسا وألمانيا وروسيا، يعارضون استخدام القوة لتغيير النظام العراقى.

الشراكة الأمريكية - الشرق أوسطية: بناء الأمل فى السنوات القادمة

وهذه المبادرة التى طرحها كولين باول وزير الخارجية التى تعد مكملة لمبادرة «خريطة الطريق» تدعو إلى تعاون أمريكى - عربى فى إجراء إصلاحات اقتصادية وسياسية وتعليمية. وتتحدث المبادرة عن الفقر والبطالة وسوء الأحوال الاقتصادية فى العالم العربى، فضلا عن تخلف التعليم، وغياب الديمقراطية. وتعد المبادرة بتقديم ٢٩ مليون دولار للإصلاحات التى تقترحها مع وعد بتقديم مبالغ أكثر مستقبلا. وتتحدث المبادرة عن أهمية مكافحة الإرهاب، وخطورة العراق، وضرورة التوصل إلى تسوية للصراع العربى - الإسرائيلى.

وأول ملاحظة على مبادرة باول أنها تمثل تدخلا فى الشئون الداخلية للدول العربية. كذلك فإن الديمقراطية لا يمكن أن تكون مستوردة، ولا يمكن فرضها بالقوة أو بإغراء المال. أما عن الفقر والبطالة وتخلف التعليم، فلا شك أن الشعوب العربية تتطلع إلى التخلص من الفقر، والحد من البطالة، والنهوض بالتعليم. ولكن يمكن الإشارة هنا أن أمريكا رغم كل ثرائها تعانى من هذه الآفات. وعلى سبيل المثال، هناك البطالة. وهناك ملايين من الأمريكيين بلا مأوى، وينامون فى الحدائق ومحطات المترو تحت الأرض. أما بالنسبة للديمقراطية، فالمعروف عن الولايات المتحدة، أنها ساندت نظمًا دكتاتورية فى أمريكا اللاتينية وآسيا لحقبة طويلة، ووصل الأمر إلى حد تدبير انقلابات دموية فى بعض الدول ضد رؤساء تم انتخابهم بطريقة ديمقراطية، كما حدث فى شيلى وغيرها. وفى الولايات المتحدة نفسها، بدأت الديمقراطية تتراجع بشكل خطير بعد أحداث ١١ سبتمبر فى نيويورك وواشنطن، حتى بدأ البعض داخل أمريكا يتحدثون عن عودة المكارثية؛ تلك الظاهرة التى تولى رعايتها

السناتور جوزيف مكارثى «ولجنة النشاط المعادى لأمريكا». وكانت مهمة هذه اللجنة إرهاب المفكرين والمثقفين الأمريكيين الذين يعارضون سياسة بلادهم، ومنهم مفكرون كبار مثل أرثر ميلر.

لهذا لا يمكن أن تكون مبادرة باول مبادرة جادة أو مخلصة، ولو كانت كذلك، لكان أول ما يتعين على أمريكا أن تفعله، هو أن توقف المجازر التى تسعى بها إسرائيل لسحق الشعب الفلسطينى.

مخطط إعادة الصياغة

إن مبادرة باول لا تهدف إلى الإصلاح فى العالم العربى، بل تهدف إلى إعادة صياغة الدول العربية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، حتى تصبح أكثر ضعفا، وطوع أوامر الولايات المتحدة، ومن ورائها إسرائيل. واللافت للنظر أن باول تجاهل فى مبادرته أن من أهم أسباب التخلف الذى يعانى منه العالم العربى، هو أن هذا العالم عانى طويلا من الاستعمار الغربى، ونهب الدول الغربية لثرواته، ثم استنزاف إمكاناته وطاقاته، بزرع كيان عنصرى عدوانى فى قلبه يمثل خطرا عليه فى كل وقت.

ويقول المحلل السياسى السورى چورچ جبور إن مبادرة باول محاولة لخطف العقول العربية بشىء من المال، لتأخذ موقفا غير معارض أو محايد بالنسبة للعدوان الأمريكى على العراق، وتتغاضى عن الاحتلال الإسرائيلى. وقال جبور إن باول تجاهل القضية الفلسطينية، ولم يتحدث من قريب أو بعيد عن مشكلة الاحتلال الإسرائيلى، كأهم معوق من معوقات التنمية فى منطقة الشرق الأوسط.

وليس العرب وحدهم الذين يقولون إن الولايات المتحدة تريد بمبادراتها الأخيرة إعادة تشكيل العالم العربى، حتى تستطيع تحقيق أهدافها بسهولة. فالكاتب الأمريكى وليام فاف يقول فى مقال بصحيفة «هيرالد تريبيون» إنه أصبح معروفا فى الولايات المتحدة أن إدارة بوش تعمل على تنفيذ مخطط كبير لإعادة صياغة الشرق الأوسط، وهو مخطط وضعه المحافظون الجدد فى واشنطن الذين الكثير منهم رفاق فى إسرائيل. وينقل وليام فاف عن صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» الأمريكية قولها إن هذا المخطط طموح مثل اتفاق «سايكس بيكو» بين بريطانيا وفرنسا، الذى أسفر عن تقسيم الإمبراطورية العثمانية المهزومة إلى دول عربية تسيطر عليها لندن وباريس.

وقال الكاتب الأمريكى وليام فاف إن برنامج المحافظين الجدد يعنى ضمان سيطرة الولايات المتحدة على بترول العراق، وعلى أسعار البترول فى العالم، بتحطيم منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك) إذا دعت الضرورة، وسيضمن هذا البرنامج سيطرة إسرائيل عسكريا على المنطقة، ربما بإحداث تغيير فى الأنظمة فى سوريا وإيران والسعودية، بالإضافة إلى العراق. وتوقع الكاتب وليام فاف أن يفشل هذا المخطط الأمريكى.

إن الموقف الأمريكى - رغم كل محاولات أمريكا تجميل صورتها من خلال مبادرات لا

معنى لها يضع الولايات المتحدة فى موضع الشريك لإسرائيل فى كل ما ترتكبه ضد الفلسطينيين والعرب. كما أنها ستكون محل إدانة عالمية إذا هاجمت العراق، فى مواجهة معارضة من الرأى العام العالمى، ومن عدد كبير من الحكومات. يصف الكاتب البريطانى هارلود بنتر فى مقال بصحيفة «ديلى تلجراف» البريطانية الإدارة الأمريكية بأنها «حيوان كاسر متعطش للدماء». والحقبة التى يعيشها العالم حاليا هى كابوس من الغطرسة والهستيريا والغباء والعدوانية من جانب أقوى دولة عسكرية فى العالم، تشن حربا بلا هوادة على بقية دول العالم». وقال الكاتب البريطانى» إن بوش الذى أعلن أن الولايات المتحدة لن تسمح بوجود أسوأ أنواع الأسلحة فى العالم، فى يد أسوأ القادة فى العالم، عليه أن ينظر بسرعة فى المرآة، لأنه فى الواقع يتحدث عن نفسه، وليس عن الآخرين»!

والحقيقة أن كلام الكاتب البريطاني صحيح!

قالوا

الشعراء يحملون أوطانهم على أجنحة قصائدهم ويطيرون، وما أشقى الأوطان التى لا تحرسها كلمات الشعراء!!

نزار قبانى

الفن ليس طريقة معقدة لقول أشياء بسيطة ، بل طريقة بسيطة لقول أشياء معقدة.

جان كوكتو

الاستراتيجية الأمريكية للسيطرة على بترول الشرق الأوسط

عمرو كمال حمودة *

في منتصف شهر فبراير عام ١٩٤٣، حينما كانت الحرب العالمية الثانية في أوجها.. كان ثلاثة من رؤساء مجالس إدارات الشركات الأمريكية البترولية الكبرى، هم بالترتيب رؤساء: "شركة سوكال" و"شركة تكساكو" و"شركة كازوك" يقفون على عتبة مكتب الرئيس "روزفلت" ممسكين بقبعاتهم في انتظار الإذن بالدخول.

كان رؤساء مجالس إدارات الشركات الثلاثة قد تقدموا بمذكرة عاجلة، وإن كانت وافية للسكرتير العام للبيت الأبيض..، طالبين مقابلة الرئيس مع وزير داخليته المشرف على قطاع النفط "هارولد أيكس".

استقبل الرئيس روزفلت الضيوف في مكتبه البيضاوي وبجواره "أيكس" واستمع بتأن شديد للشرح المستفيض الذي قدمته المجموعة للأوضاع البترولية في أنحاء العالم، ولاحتياجات الأمن القومي الأمريكي، ثم في نهاية الاجتماع تقدموا بطلب محدد ألمحوا إليه في مذكرتهم على النحو التالي..

* خبير فى شئون النفط ومدير مركز الفسطاط للدراسات

"تريد أن تضع الإدارة الأمريكية في اعتبارها إبعاد النفوذ البريطاني عن الشرق الأوسط بترولياً.. والحصول على تأكيدات قاطعة بأن يكون بترول هذه المنطقة لصالح الشركات الأمريكية عندما تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها".

وعقب انتهاء الاجتماع، قال الرئيس روزفلت لوزير الداخلية "هارولد أيكس".. "إنني أشعر بأهمية ما قيل في الاجتماع وإنه لابد من التحرك في الاتجاه السليم، فما رأيك؟"

كان رد أيكس" إنه من الضروري أن تضع الولايات المتحدة الأمريكية يدها على بترول المملكة العربية السعودية تحديداً.

لقد كان من أهم عوامل مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية، الاهتمام ببترول الشرق الأوسط، حيث ظهر خلال الحرب نفسها مدى حساسية هذه السلعة الاستراتيجية في مسار الحرب وفي قدرة الولايات المتحدة على التعبير عن قوتها في الساحة العالمية وأن يكون لها ولمجموعة شركاتها البترولية القدرة على ممارسة النفوذ الأمريكي وتأكيده.

** بعد أن أنهى "أيكس" اجتماعه مع الرئيس روزفلت استدعى الجيولوجي "دي جويلر" وهو واحد من أهم الجيولوجيين الأمريكيين الذين ظهروا في القرن العشرين، وقد اكتشف أكبر حقول النفط في المكسيك "بورتريرو دي لانو"، وقد اتسمت شخصيته بالديناميكية والثقة بالنفس والثقافة وسعة الاطلاع، وامتلك مكتبة ضخمة متعددة المعارف.

وقد عمل مستشاراً لوزير الداخلية الأمريكي في الشؤون البترولية نظراً لمكانته المحترمة في المحافل الدولية.

قام "أيكس" بتكليف "دي جويلر" بمهمة محددة وهي تكوين فريق تحت رئاسته من العلماء والجيولوجيين المختارين بعناية فائقة، لزيارة المملكة

العربية السعودية والعراق وإيران والبحرين خلال النصف الثاني من سنة ١٩٤٣، وكتابة تقرير واف عن الإمكانات البترولية في هذه المنطقة.

بعد ثلاثة شهور عاد الفريق إلى واشنطن وقدم تقريره للرئيس روزفلت ذكر في نهايته: "البترول في هذه المنطقة هو أكبر جائزة في التاريخ" و"أن مركز الإنتاج البترولي في العالم قد انتقل من منطقة الكاريبي إلى منطقة الشرق الأوسط في قلبها حوض وشواطئ الخليج الفارسي".

الرخص والجودة

ولم يقتصر اهتمام الحكومة الأمريكية على تقدير حجم الاحتياطي من الثروة النفطية في الشرق الأوسط، وكيفية استخراجه، إنما انتقل الاهتمام لدائرة أخرى تتمثل في تأمين خروج البترول إلى مرافئ آمنة للتصدير، وقد تبنى "هارولد أيكس" فكرة مشروع خط أنابيب ضخم تقدر قيمته بمائة وعشرين مليون دولار، تشترك في تشييده "شركة سوكال" و"شركة تكساكو" و"شركة جلف أويل" مع الحكومة الأمريكية.. وهي شركات تعمل في الجزيرة العربية، والمشروع يستهدف نقل النفط الكويتي والنفط السعودي عبر صحراء الجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط ليذهب بعد ذلك لأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

وعبرت هيئة قيادة الأركان العامة للقوات المسلحة الأمريكية عن تأييدها لهذا المشروع لأهميته في تأمين الموارد النفطية للأمن القومي الأمريكي.

كانت حكومة بريطانيا العظمى قد شعرت بتحركات الشركات البترولية الأمريكية تجاه بترول الشرق الأوسط، وبدأت تقارير المخابرات البريطانية من طهران وبغداد وعدن ترسل إشارات عن لقاءات مكثفة بين كبار مسئولي الشركات البترولية الأمريكية وصانعي القرار في المشرق العربي والجزيرة العربية.

لم يسترح رئيس وزراء بريطانيا "السير ونستون تشرشل" لمحتوى تقارير رجال مخابراته وأعطى تعليماته لسفيره في واشنطن "لورد هاليفاكس" بضرورة مقابلة الرئيس الأمريكي "روزفلت" ليناقشه في موضوع واحد فقط ألا وهو "نفط الشرق الأوسط".

عقد الاجتماع في مكتب الرئيس الأمريكي في أحد أيام شهر فبراير ١٩٤٤، وبعدما استمع الرئيس روزفلت لحيثيات السفير البريطاني، أخرج من درج مكتبه ورقة عليها "سكتش" بخط اليد مرسوم بالقلم الرصاص به خريطة للشرق الأوسط والخليج الفارسي مع نقاط بارزة بها سواد ثقيل.

أعطى الرئيس الأمريكي "السكيتش" للورد هاليفاس" قائلاً له:

"عزيزي اللورد، تلك الورقة توضح لك أن نفط العراق والكويت سيتم تقسيمه بيننا بالتساوي، أما نفط المملكة العربية السعودية فهو لنا بالكامل".

وهكذا حددت الولايات المتحدة الأمريكية موقفها من نفط الشرق الأوسط بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكان تقدير الإدارة الأمريكية أن نفط الشرق الأوسط يشكل ٦٠ بالمائة من الاحتياطي العالمي المعروف آنذاك، ناهيك عن رخص تكلفة استخراجه، إذ أنه يوجد في طبقات قريبة من سطح الأرض ومن جودة فائقة بحيث تصل درجة نقاوة النفط الخام إلى ما يقرب من ٤٠ درجة API، أي أن المنطقة تزخر بالخامات النفطية الخفيفة والخالية من النسبة العالية من الرصاص.

<u>وفي عبارة واحدة كان نفط الشرق الأوسط بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، نفطاً رخيصاً وفائق الجودة ومنه احتياطي ضخم.</u>

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، فإن نظاماً بترولياً جديداً مركزه الشرق الأوسط وتقوده الولايات المتحدة الأمريكية قد أعلن عنه. وبادرت الإدارة الأمريكية بإصدار كتاب أبيض حول ترتيبات صناعة البترول الأمريكية، كتب

مادته الاقتصادي "يوجين روستو"، أعقبه صدور قرار إنشاء هيئة فيدرالية جديدة لتأمين الموارد البترولية من الخارج مع التشديد على الحفاظ على الخامات النفطية الأمريكية في باطن الأرض كاحتياطي استراتيجي عسكري وتعويضه بالاستيراد من الخارج.

النظام البترولي الجديد وضع أقدام الولايات المتحدة الأمريكية في العديد من المواقع البترولية التي كانت تحت سيطرة دولة بريطانيا العظمى، وبدأت الشركات الأمريكية البترولية مثل "جلف أويل" و"تكساكو" و"موبيل أويل" و"أسو" تغزو الشرق الأوسط وتبعد رويدا رويدا الشركات البريطانية عن الحصول على "الكعكة البترولية كلها".. وقد فتح ذلك شهية الحكومة الأمريكية لتمديد نفوذها السياسي في الشرق الأوسط، إلا إنها ووجهت بمصاعب كبيرة ذلك أن "حركة التحرر الوطني" كانت في بداية اشتعالها لتطول المنطقة العربية معلنة عن عهد جديد ورياح للتغيير.

الصراع على إيران

فوجئت الولايات المتحدة الأمريكية بأول رد فعل قوي لتحركاتها البترولية في الشرق الأوسط، بحدوث مواجهة عندَ أهم موقع ساخن وكان "إيران".

في العاصمة طهران كان الصراع البريطاني / الأمريكي على النفوذ السياسي على أشده وبالتوازي مع الصراع على النفوذ البترولي ورغبة الشركات الأمريكية في مزاحمة وتحجيم الشركات البترولية البريطانية.. وإذا برئيس الوزراء الإيراني "مصدق" يعلن في مطلع النصف الثاني من القرن الماضي.. قيام الحكومة الإيرانية "بتأميم صناعة النفط" وأدت هذه الخطوة لإرباك كافة حسابات الإدارة الأمريكية آنذاك.. وخططت لواحدة من أهم عملياتها الانقلابية المخابراتية من أجل ضبط الشعور الوطني الإيراني وطرد النفوذ البريطاني وإدخال إيران في حظيرة النفوذ البترولي الأمريكي. فكان

الانقلاب الذي دبرته وأدارته الوكالة الأمريكية للمخابرات فأطاح برئيس الوزراء الإيراني "مصدق" وإعادة الشاه محمد رضا بهلوي لكرسي السلطة. وبعدها دخلت الشركات البترولية الأمريكية لإيران.

ولم يهدأ الصراع، لأن فكرة "التأميم" لصناعة النفط.. ولو جزئياً، بدأت تغزو العالم العربي. وجاءت ثاني أزمة حقيقية، عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو بتأميم قناة السويس.. صحيح أن النفوذ البريطاني قد انكمش بعدها عن المنطقة العربية لصالح النفوذ الأمريكي.. إلا أن "فكرة التأميم" أصبحت هي الأخرى حقيقة واقعة..

ساهمت "مصر الثورة" في إنشاء منظمة الدول المصدرة للنفط والمعروفة باسم (أوبك).. ويقول وزير البترول الفنزويلي الأسبق "بيرس ألفونسو" في مذكراته:

"كنا في غاية الرعب، أنا وصديقي عبد الله الطريقي وزير البترول السعودي، من التجاسر باتخاذ قرارات خاصة بالتأميم الجزئي لصناعة النفط عندنا أو حتى إنشاء منظمة تضم الدول المنتجة للنفط لمواجهة كارتل الشركات المنتجة له.

ولكن تشجعنا بعد أن أمم جمال عبد الناصر شركة قناة السويس ووقف أمام الغرب وقفة قوية صلبة. وكان أن اتصلنا سراً بالرئيس ناصر وأطلعناه على خططنا، فدعانا لزيارة القاهرة، وقام فريق من مستشاريه بعرض تجربة التأميم علينا بالكامل، وكيفية إدارة الشركة بعد طرد العناصر الأجنبية منها، وكان ذلك في شتاء عام ١٩٦٠، وكان الاجتماع في نادي اليخت بضاحية المعادي جنوب مدينة القاهرة.

خرجنا من اجتماع القاهرة إلى بغداد، وأعلنا من هناك وبموافقة العراق والكويت وإيران قيام منظمة أوبك".

كان صراع الولايات المتحدة الأمريكية مع "ثورة يوليو" هدفه تطويق انتشار الفكر القومي والحيلولة بين أن تستطيع الدول العربية ومنها الدول المنتجة للنفط السيطرة على ثروتها القومية وأهم عنصر فيها "النفط" ولقد وقفت الشركات البترولية الأمريكية أمام محاولات الأوبك لكسر النظام الاحتكاري لتجارة النفط.. بل تمكنت منظمة أوبك وفي ظل مناخ المد القومي العربي من تعديل شروط امتيازات التنقيب واستخراج البترول، لتصل في النهاية إلى قاعدة التقاسم والمشاركة بالمناصفة في الإنتاج بعد احتساب التكاليف.

سلاح النفط

وعندما وقعت هزيمة يونيو ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لسيناء وهضبة الجولان والضفة الغربية وغزة.. فإن الإدارة الأمريكية لاحظت بجلاء أن النظم العربية التي كانت معادية للنظام الناصري، ولكنها منتجة للنفط مثل السعودية، وقفت بجانب الدول العربية التي احتلت أراضيها، وقامت المملكة العربية السعودية والكويت وليبيا بتحويل مبالغ كبيرة لدعم الصمود العربي ضد العدوان الإسرائيلي.. وعندما شنت مصر وسوريا الحرب ضد إسرائيل في أكتوبر ١٩٧٣ تم استخدام سلاح النفط في المعركة، وتولت المملكة العربية السعودية إدارة المعركة البترولية وصدرت القرارات للحظر التدريجي للنفط طوال أيام المعركة.

وجدت الإدارة الأمريكية للرئيس نيكسون نفسها في وضع غير مسبوق.. فالشعب الأمريكي يقف في الطوابير من أجل تموين سياراته، والشاحنات تقف بالساعات عاجزة عن التحرك لنقل البضائع من ولاية لأخرى. في الوقت الذي اهتز فيه المخزون الأمريكي من البترول بشدة.. بينما ارتفع ثمن برميل النفط

بعشرات الدولارات دفعة واحدة، ولم تكن المدافع قد سكتت بعد على ضفاف قناة السويس أو في هضبة الجولان !

استاءت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية من الموقف البترولي الذي حدث مع شن حرب أكتوبر، وكان هنري كيسنجر وزير خارجية الرئيس نكسون يشعر طوال فترة المفاوضات التي دارت أثناء إطلاق النيران وبعد سكوت المدافع.. بأن دخول النفط بؤرة الصراع سوف يكون له تداعيات مباشرة على الاقتصاد العالمي وعلى الاقتصاد الأمريكي وعلى تأجيج حدة الصراع العالمي حول النفط.. ثم من ناحية أخرى أن سلاح النفط أصبح ورقة تفاوضية للعرب في صراعهم مع إسرائيل.

وبدأت إدارة الرئيس نكسون في التفكير في سياسة جديدة لوضع الطاقة، على أنها رأت أن الأمر يحتاج لتحليل للواقع الجديد المتغير. وقد عبر عن ذلك "هنري كيسنجر" عندما ألقى محاضرة بجامعة شيكاغو يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٤ فقال:

"إنني أتكلم بالطبع عن أزمة الطاقة، وهي أزمة شديدة الخطورة، ولابد أن نجد لها حلاً. إن الواقع الذي يواجهنا كئيب. فقبل سنة ١٩٧٣ كان الطلب على البترول يتجاوز المعروض منه. وكانت تلك مشكلة. ولكن المشكلة تحولت إلى أزمة خانقة لأننا فوجئنا، ومن غير تحذير مسبوق ولأول مرة بحظر على البترول يهدف إلى تحقيق أغراض سياسية. ثم تلت ذلك زيادة في أسعار البترول رفعت تكاليف هذه السلعة الاستراتيجية التي لا غنى للعالم عنها بنسبة ٤٠٠%، وكان تأثير ذلك فادحاً على كل مجتمعات الغرب وعلى المستوى العالمي. والتحدي الذي يواجهنا هو أن نتصدى لهذا الوضع الطارئ ونعيده إلى نطاق السيطرة. ولابد أن ندرك أننا أمام ضرورة الاختيار وحتمية القرار."

وفي كتاب حرب الخليج – أوهام النصر والقوة للأستاذ محمد حسنين هيكل، يحدد أن الولايات المتحدة الأمريكية قد اختارت سياستها في ضوء ما سبق على النحو التالي:

"

- الإمساك بزمام عملية البحث عن حل لأزمة الشرق الأوسط، وترتيب ذلك على سياسة الخطوة خطوة، بحيث تتوافق الخطى مع استعادة السيطرة على موارد الطاقة.
- اعتبار إسرائيل الرادع الأساسي في الشرق الأوسط، ورفع درجة العلاقات معها لكي تصبح علاقة استراتيجية، فإسرائيل هي العنصر الذي أدى بالعرب في النهاية إلى قبول حل أمريكي للأزمة، واستمرار إحساس العرب بتهديدها هو الضمان بهرولتهم دائماً إلى أبواب البيت الأبيض.
- القبول بارتفاع أسعار البترول، والعمل على امتصاص الفوائض المتولدة من زيادة الأسعار وتدويرها بواسطة البنوك الأمريكية الكبرى وتشجيع الأموال الباقية في يد العرب على أنماط في الاستهلاك تهدر الثروة ولا تحفظها.
- كسر تحالف أكتوبر الذي جمع على غير انتظار بين الجيوش العربية القادرة على القتال وبين منابع البترول العربي المعبأة بالذهب الأسود.
- استخدام جزء من فوائض الأموال العربية ليكون هو نفسه الاستثمار الذي يوجه لتوفير بدائل للطاقة منافسة للبترول العربي.

- العمل على خلق حساسيات بين العرب والعالم الثالث وخصوصـــاً أفريقيا، فقد نجح العرب خلال أزمة أكتوبر في إقناع معظم الـــدول الأفريقية بقطع علاقتها بإسرائيل.
- تشجيع الرئيس "السادات" على خطته في إخراج السوفييت تمامـــاً من الشرق الأوسط سواء كنفوذ سياسي أو كمصدر للسلاح."

****

الأمن والطاقة

وسارت الإدارة الأمريكية بالتوازي مع سياستها الجديدة في الشرق الأوسط على مسار آخر يتمثل في إيجاد بدائل لنفط الشرق الأوسط. فكان إنشاء الوكالة الدولية للطاقة، وكان اتخاذ الكونجرس قرار إنشاء خط أنابيب "ألسكا" بتكلفـــة قدرت بعشرة بلايين من الدولارات لضرب آثار الحظر البترولي ، وكذلك إنشاء احتياطي إستراتيجي من النفط ، يكفي الولايات المتحدة لمدة ٦ شـــهور علـــى الأقل في حالة امتناع الإمدادات البترولية من الخارج.

وقد تحقق تطور مهم في قضية الطاقة، عندما أتى عهد الرئيس الأمريكـــي "جيمي كارتر" الذي عهد بملف الطاقة لشخصية من خارج الدائـــرة البتروليـــة وهي "جيمس شليزنجر" الأستاذ الجامعي المتخصص في "اقتصاديـــات الأمـــن القومي". وكانت فكرة الرئيس كارتر أنه يريد شخصاً يستطيع الربط بين ملـــف الطاقة وأهداف الأمن القومي خلال الفترة التي تسبق بدايـــة القـــرن الواحـــد وعشرين.

<u>كانت مهمة "شليزنجر" صعبة، ذلك أن تقارير وكالة المخابرات الأمريكيـــة وتقارير الوكالة الدولية للطاقة، أشارت إلى أن الاحتياطي المعروف من النفـــط</u>

سوف يتآكل بدرجة كبيرة. بحيث قد ينتهي عند عام ٢٠٢٠ ماعدا بعض الدول هي بالتحديد: المملكة العربية السعودية وإيران والعراق والكويت.

وفي ظل هذا الوضع البترولي الشائك، سقط شاه إيران أقوى حليف للولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الخليج (الفارسي أو العربي)، وقامت جمهورية إسلامية ترفع شعارات الغضب والكراهية لرمز الرأسمالية العالمية.

وكان تقرير "شليزنجر" والذي أخذ به الرئيس كارتر، أنه لابد من صياغة مبدأ جديد للإدارة الأمريكية يضمن الحفاظ على مصادر الطاقة في الخليج وفي الشرق الأوسط، مبدأ أمني عسكري في الأساس. فجاء إعلان الرئيس كارتر لمبدأ جديد وذلك في خطابه عن حالة الاتحاد أمام الكونجرس في ٢٣ يناير ١٩٨٠ بالنص التالي:

"إن أي محاولة من جانب أي قوى للحصول على مركز مسيطر في منطقة الخليج سوف يعتبر في نظر الولايات المتحدة الأمريكية كهجوم على المصالح الحيوية بالنسبة لها، وسوف يتم رده بكل الوسائل بما فيها القوة العسكرية".

وأضيف للإعلان تشكيل قوة أمريكية عسكرية خاصة للتعامل مع الظروف التي يتعرض لها "مبدأ كارتر" وأطلق على هذه القوة اسم "قوة الانتشار السريع".

وعندما اندلعت حرب الخليج الثانية واستولت العراق على الكويت.. ثم قامت الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة تحالف دولي اقتحمت به الكويت، وأخرجت الجيش العراقي منه، وأعلنت الحصار على دولة العراق.. وقد كانت هذه الحرب بسبب النفط ومن أجل النفط.

ونذكر هنا عبارة السيناتور "بينيت جونسون" رئيس لجنة الطاقة بالكونجرس الأمريكي في يوليو ١٩٩٠ قبيل غزو العراق للكويت عندما نبه لخطورة وضع الطاقة في الولايات المتحدة قائلاً:

"إن الزيادة في الواردات من البترول هي عبارة عن نزيف مستمر للاقتصاد الأمريكي، وهو في الوقت نفسه يواجهنا بخطر حقيقي في أمننا القومي".

وتشير هذه العبارة إلى أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تعمد إلى الحصول على نفط رخيص بأي طريقة وبكل وسيلة. ولذلك خاضت الحرب من أجل تأمين ذلك.

وبعد انتهاء العمليات العسكرية وإخراج الجيش العراقي من الكويت، أصبحت القوات العسكرية الأمريكية متواجدة بكثافة في الشرق الأوسط وبالقرب الشديد من مواقع إنتاج البترول وموانئ شحنه.

وعلى صعيد آخر.. جاءت التقارير العلمية عن حالة الحقول البترولية الموجودة في العالم، وذلك عبر الوكالة الدولية للطاقة لتشير بأن نحو ٧٠ بالمائة من هذه الحقول قد تعدى عمر إنتاجها الثلاثين عاماً بمعنى أنها "شاخت" وبدأ إنتاجها في التراجع رغم التقدم في الإمكانات التكنولوجية والتي حاولت بقدر الإمكان الاستمرار في الضخ من الحقول بنفس الشروط التي كانت موجودة من قبل.

ولذلك كان على الإدارة الأمريكية أن تقوي من مركزها في الشرق الأوسط، وفي نفس الوقت أن تبحث عن مناطق جديدة تضخ بترولاً يطول عمره ويجعلها قادرة على الالتفاف حول جبهة منظمة أوبك.

واحدة من أهم المناطق الجديدة تلك الجمهوريات الإسلامية التي كانت ضمن مملكة الاتحاد السوفييتي السابق، والتي عرفت فيما بعد بجمهوريات آسيا الوسطى ثم أطلق على المنطقة الجغرافية فيما بعد "نفط القوقاز وبحر قزوين".

وهي منطقة واعدة مازالت الشرعية السياسية فيها غير مستتبة، وإمكانات الحصول على امتيازات بترولية بشروط ممتازة للشركات البترولية العملاقة..

قائمة، وتكاد تكون الصورة هناك مماثلة لمرحلة توقيع الاتفاقـــات البترولية الأولى في منطقة الشرق الأوسط في أوائل القرن العشرين.

ومنطقة القوقاز شاسعة وتضم دولاً عدة متباينة المصالح وتتميز بـالملامح الآتية..

- وجود عدد كبير من الشركات البترولية العالمية في القوقاز وبحر قزوين يحكم عملها قانون الصراع والتعاون.
- وجود اختناقات كبيرة في عملية تصدير النفط والغاز، لأن عـــدداً من الدول في القوقاز ليس لديه منافذ بحريـــة وبالتــالي ظــهور خلافات حول مسألة إقامة شبكة من خطوط الأنابيب لنقـــل النفــط والغاز إلى الخارج.
- المصالح السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكيـــة فـــي منطقة القوقاز.

النافلون والمالكون

تبلغ الاحتياطات الحالية المعروفة لدول القوقاز المطلة على بحـــر قزويـــن "أذربيجان وكازاخستان وتركمانستان" حوالي ١٦ مليار برميل من النفـــط أي حوالي ١,٦ فقط من مجموع الاحتياطات العالمية، ويتم تصدير يوميا ما يقـوب من ٤٠٠ ألف برميل في الوقت الراهن. وقد ذكرت دراسة لوزارة الخارجيـــة الأمريكية صدرت عام ١٩٩٧ أن الاحتياطات المؤكدة والمحتملة مـــن النفــط الخام في جمهوريات كازاخستان وأذربيجان وتركمانستان تقدر بحوالـــي ١٧٨ مليار برميل وتشير الدراسات المتوافرة إلى أن إنتاج المنطقة ســـيرتفع إلـــى ٣,٥ مليون برميل يوميا عام ٢٠١٠.

ولا يقل عدد الشركات التي تعمل في الجمهوريات الإسـلامية عـن ١٠٠ شركة كلها تنقب عن النفط والغاز في البر والبحر، ويضاف إليها عدد آخر من شركات المقاولات والخدمات البترولية.

وفي جمهورية "كازاخستان" قامت شركة شيفرون الأمريكية بتشغيل حقـل "تنجيز" والذي اكتشفته وتستخرج منه ما يقرب من ١٥٠ ألف برميـل يوميـاً وهو مشروع مشترك مع جمهورية كازاخستان، وكان وزير خارجية الاتحـاد السوفييتي الأسبق "إدوارد شيفرنادزة"قد قام بدور كبير بصفته وكيلاً لشـركة شيفرون لإقناع السلطات الكازاخية لتوقيع عقد المشروع مع شيفرون وذلـك قبل أن يتولى رئاسة الجمهورية في "جورجيا".

ويواجه المشروع مشكلة كبيرة، وهي عدم وجود موانئ للتصدير، ومن ثـم يعتمد في الوقت الحالي على مقايضة الخام من "تنجيز" بخام أورال الروسـي، مع وجود كمية بسيطة قدرها ٣٠ ألف برميل يتم شحنها يومياً بوساطة خطوط السكك الحديدية إلى فنلندا، وأخرى مثلها إلى البحر الأسود عـبر جمهوريـة جورجيا بالقطارات.

وتشارك شركة "موبيل" بملكية ٢٥ % من حقل "تنجيز"، والتي حصلت أيضاً على امتياز حفر وتنقيب واستخراج النفط من منطقة "توليار" في حين تتنـافس كل من شركة أموكو الأمريكية وشركة بتروناس الماليزية والشركة الصينيـة الوطنية للبترول، من أجل استخراج النفط الخام من حقل "أوزان" وهناك أيضـاً كونسورسيوم مكون من ثلاث شركات، أجيب الإيطالية وتوتال الفرنسية والغاز البريطانية وموبيل الأمريكية وشل الهولندية والبترول البريطانية وستات أويـل النرويجية، يقومون بتطوير منطقة نفطية شمال بحر قزوين تبلغ مساحتها ستة آلاف كيلومتر مربع وتقدر الاحتياطيات النفطية فيها حوالي ٣٠ مليار برميل.

أما في أذربيجان فشركة "أنوكال" الأمريكية وشركة "دلتا" السعودية لديـــهما اهتمام كبير بالبحث والتنقيب عند الشواطئ المطلة على بحر قزوين وكلاهمـــا يشترك ضمن كونسورسيوم "المجموعـــة البريطانيـــة الأذربيجانيـــة الدوليـــة للبترول". وأما موبيل الأمريكية فقد كونت كونسورسيوم مـــع شـــركة توتـــال الفرنسية وشركة رامكو الأمريكية للبحث والتنقيب في منطقة بحر قزوين.

كما تم توقيع اتفاقيات مماثلة مع كل من شركة أموكو وأنوكال الأمريكيتيـن ودلتا السعودية في منطقة "أشرافي دان الدوز" ، وكذلك مـــع شـــركة توتـــال الفرنسية بالإضافة لمباحثات وصلت إلى طورها النهائي مع شركات أمريكيـــة عدة هي شيفرون وإكسون وأركو وكونوكو ثم مع شركة شل الهولندية.

وتقوم المجموعة البريطانية الأذربيجانية المشتركة مع شركة "بـــتر أويـــل" الأمريكية وشركة "لوك أويل الروسية وشركة أجيب الإيطالية، بالبحث والتنقيب في منطقة "كاراباخ" المشتركة مع "جورجيا" وتحتكر المجموعـــة البريطانيـــة الأذربيجانية المشتركة العمل في منطقة "شاخ دينيز".

ومن أهم الحقول التي يستخرج منها النفط الخام وتحت احتكار المجموعـــة حقول: أذري وجونشالي وشيراج.

وعلى صعيد آخر فإن الحكومة التركية عن طريق شركتها T.P.O. وأيضاً الحكومة الإيرانية عن طريق الشركة الإيرانية البترولية الهندسية قد اشـــترتا حصصاً في منطقة "شاخ دينيز" تعادل ٩% لكل دولة.

وفي منطقة "لانكوران" الغنية بالنفط (احتياطي ٣٥٠/٤٠٠ مليون برميـــل) فإن شركة إلف أكيتان الفرنسية قد استحوذت على عمليات الحفـــر والتنقيـــب وستمتلك ٧٥% من حصيلة الإنتاج بالاتفاق مع شركة "شوكار" الأذربيجانيـــة الحكومية. بينما نجد أن شركة توتال الفرنسية قد كونت كونسورســـيوم مـــع شركة "موبيل" الأمريكية وشركة "رامكو" البريطانية للتنقيب والبحث في الميـــاه

الضحلة بالقرب من المياه الضحلة بالقرب من المياه الإقليمية في إيران وحدودها مع "أذربيجان".

وبالنسبة لجمهورية تركمانستان، تمكنت شركة بتروناس الماليزية من توقيع عقد امتياز لمدة ٢٦ عاماً مع حكومة تركمانستان لاقتسام الإنتاج في المنطقة (١) التي تغطي ١٤٦٧ كيلومتراً مربعاً في ابشرون على بحر قزوين.

وتبعت بتروناس شركة موبيل الأمريكية التي دخلت كشريك في ثلاثة حقول تقوم شركة "مونيمونت البريطانية" بتنميتها وهذه الحقول هي: بورون / كاراتبي / كيزيلكوم.

وتجدر الإشارة أنه برغم وجود احتياطيات النفط الخام فإنه من الصعوبة بمكان استخراج الغاز في الظروف الحالية بسبب غياب منافذ تصدير للخارج لحين بناء شبكة خطوط الأنابيب.

عند أهل البترول من المتعاملين فيه، قاعدة مهمة تحكم عملهم، تقول القاعدة "إن ناقل النفط أهم من مالكه، " لأن النفط إذا لم يجد وسيلة لنقله إلى أماكن الاستهلاك فسيؤثر ذلك على سعره وقيمته بالسلب. وتلك القاعدة كانت في صالح منتجي النفط العرب، حيث البحار المفتوحة تحيطهم من كل جانب ، وظروف التواجد في قلب العالم أتاح سرعة الوصول لأماكن استهلاك النفط شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، بطريقة سهلة.

ونقل النفط والغاز من أذربيجان وكازاخستان وتركمانستان إلى مواطن الاستهلاك في العالم الخارجي.. هي مشكلة المشاكل، والعقبة الكأداء التي تختلط فيها حزمة من المشاكل السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والجيوبوليتيكية على السواء.

دبلوماسية الطاقة

وفي تقدير خبراء النقليات إن الدول المشار إليها ، ستتحمل تكاليف إضافية نتيجة رسوم النقل والعبور والترانزيت الواجب دفعها إلى دول الجوار والتي تقدر بحوالي ٤ – ٦ دولارات للبرميل الواحد. والنفط والغاز المستخرجان ليس أمامهما سوى العبور للعالم الخارجي بواسطة خطوط الأنابيب والسكك الحديدية. وبذلك تفجر صراع المصالح بين القوى المتصارعة هناك حول الهيمنة والسيطرة على مسارات خروج النفط والغاز من القوقاز وقزوين إلى العالم الخارجي. ومن هنا بدأ الدور الأمريكي في الظهور على ساحة اللعب مستخدماً دبلوماسية الطاقة كنموذج للهيمنة الأمريكية في عالم أحادي القطبية.. حتى الآن.

وهذه الآلية خارج إطار الجهاز الدبلوماسي التقليدي وهو وزارة الخارجية الأمريكية، ورغم أنها تشارك فيه، إنما نحن أمام آلية جديدة لها تكوينها الخاص وتتشكل من وزارة الخارجية، الوكالة الأمريكية للتنمية والتجارة، وزارة التجارة، وكالة المخابرات المركزية لشئون آسيا الوسطى، والبيت الأبيض. وكان الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون قد أصدر قرارا بتعيين مستشار له لشئون الطاقة يتولى عملية التنسيق بين الأجهزة المختلفة المتعاونة في تنفيذ "دبلوماسية الطاقة".

أهداف دبلوماسية الطاقة الأمريكية واضحة جداً.. الإعاقة التامة لأي مسارات تنقل النفط والغاز من القوقاز عبر روسيا وإيران. وطرحت الولايات المتحدة الأمريكية إقامة مشروعين كبيرين من خطوط الأنابيب، الأول: لنقل الغاز من تركمانستان وأذربيجان عبر جورجيا وينتهي عند تركيا وأطلق عليه اسم: خط أنابيب ترانز كاسبيان لنقل الغاز" (T.P.C.). والثاني: لنقل البترول الخام من كازاخستان وأذربيجان وتركمانستان عبر جورجيا وينتهي عند تركيا وأطلق عليه اسم: "خط أنابيب قزوين لنقل النفط" (C.P.C.).

وثمة عدة ملاحظات، فكلا الخطين يمتدان لمسافة طويلة جداً، لا تقل عـــن ١٧٠٠ كيلومتر. وذلك عبر عدة دول بينها خلافات سياسية وعرقية. كمـــا أن التكلفة لكل خط تتراوح ما بين ٢,٥ مليـــار و ٣,٥ مليـــار دولار. ومشــكلة التمويل تمثل عقبة كبيرة. فالأتراك رغم حرصهم على إتمام المشروعين إلا أن الميزانية التركية بعد آخر زلزال ضرب البلاد، تعاني من أزمات مالية متلاحقة. أما باقي الدول فهي تمتلك نفطاً ولكنها لم تتصرف فيه بالبيع حتى الآن ممـــا يجعلها في وضع اقتصادي قوي يسمح بدفع حصصها في المشروعين.

ومنذ شهر أغسطس من العام ٢٠٠٠، ودبلوماسية الطاقة الأمريكية" تعمـل بطريقة محمومة للتنسيق والضغط والترتيب بين جميع الأطراف وصولاً لاتفاق من أجل تنفيذ المشروعين.

وكان جون وولف مستشار الرئيس الأمريكي بيل كلينتون لشئون دبلوماسية للطاقة قد أعلن أمام الأوساط البترولية في ١٩٩٩/٨/٩ خـــبر تكويـــن آليـــة لتمويل خط الغاز   من بنك الاستيراد والتصدير الأمريكي والوكالة الأمريكية للاستثمارات الخاصة عبر البحار، وتعمل شـــركة بـــي. إس. جـــي. الأمريكية كوكيل للمؤسسين مع الإشراف علـــى تنفيـــذ المشـــروع وإعـــداده للتشغيل.

تبع ذلك زيارة من وزير الطاقة الأمريكي السابق بيل ريتشاردســـون إلـــى تركمانستان وأذربيجان استهدفت أمرين: الأول تهدئة التوتر الذي نشـــأ بيـــن الدولتين وأدى لصدام مسلح محدود ، والأمـــر الثـــاني تـــأكيد ريتشاردســـون للرئيس التركماني "نيازوف" وقوف الولايات المتحدة الأمريكيـــة بكـــل ثقلـــها بجانب المشروعين لخطوط الأنابيب، وقد حضر الوزير مراســـم توقيـــع عقـــد لتمويل الدراسة القانونية للمشروعين بمبلغ ١٥٠ ألف دولار منحة من الوكالة

الأمريكية للتجارة والتنمية وقد وقع العقد جراند ميسون مدير الوكالة مع الرئيس نيازوف.

وعندما زار وزير الطاقة الأمريكي بعد ذلك العاصمة باكو، فهم من خلال مباحثاته مع القادة الأذربيجانيين عدم رغبتهم في تصدير ما يمتلكون من نفط وغاز عبر مسالك روسية، وأنهم يشعرون بقدر من الارتياح عندما انتهوا من الخط القصير للأنابيب ، الذي يبدأ من باكو وينتهي في "سوبسا" بجمهورية جورجيا. وقد أبدت القيادة الأذربيجانية قلقها من خلافاتها الحدودية مع تركمانستان التي تتمتع بدعم تركي ليس بالقليل. في حين توجد علاقات جيدة بين باكو وطهران، لا ترضى الولايات المتحدة الأمريكية عنها، بينما تسعى الأخيرة لربط أذربيجان وتركمانستان بعلاقة شراكة اقتصادية قوية مع تركيا، خاصة في مجال الطاقة. فالخطة الأمريكية تعتمد على أن تكون المحطة الأخيرة لمشاريع الأنابيب سواء النفط أو الغاز عند ميناء سيهان التركي، واعتمد هذا الجزء من دبلوماسية الطاقة على إنشاء مركز مالي في أنقرة يعمل كبؤرة تجمع لأنشطة المفاوضات مع الأتراك والأذربيين والتركمان والكازاك من ناحية، ثم مع خبراء البنك الدولي وصندوق النقد وبنك الاستيراد والتصدير الأمريكي وهيئة الاستثمار الخاص الأمريكية عبر البحار.

وتولت "دبلوماسية الطاقة" التفاوض والتنسيق مع شركات شيفرون وموبيل وأموكو وتكساكو وشل ، لتوقيع بروتوكولات لاستخدام خطوط الأنابيب عند التشغيل، لأن هذه الخطوط لن تكون مربحة إلا عند الاستخدام المناسب ،وهو مليون برميل في اليوم وما يعادله من غاز بالنسبة لخط أنبوب الغاز.

التحكم فى أوبك

الدولة الروسية في مأزق شديد، فهي تسعى لاستعادة "حضورها القوي" في منطقة القوقاز وقزوين بوساطة شبكة نقل تحت نفوذها، ولذلك أقامت خط سكة

حديد لشحن النفط من أذربيجان إلى روسيا متفادياً "الشيشان"، وفي الوقت نفسه تجد صعوبات كبيرة في إصلاح خط أنابيب نقل النفط باكو (أذربيجان). نوفو روسيسك (روسيا على البحر الأسود)، فهذا الخط الذي يعبر جروزني يتعرض للتخريب المستمر من المتمردين الشيشان. ثم أن هناك مشكلة لدى تركمانستان التي تريد هي الأخرى تصدير الغاز وليس أمامها سوى خط أنابيب يعبر أذربيجان أو يذهب إلى روسيا ولكن عبر جزء من جمهورية داغستان. هذا التعقد في مسارات خروج النفط والغاز أعطى كارتاً تفاوضياً مهماً للشيشان في صراعهم مع الروس، ولم يكن بالتالي أمام الحكومة الروسية سوى استخدام أكثر الوسائل عنفاً لكسر إرادة الشيشانيين حفاظاً على المصالح الروسية التي بدأت تتعرض للضياع الحقيقي. فالحملة الروسية العسكرية على الشيشان استخدمت فيها وبكثافة.. الطائرات وقذائف الصواريخ والمدفعية المتنوعة الأطوال والأقطار لضرب المدن والقرى والبنية الأساسية، وعندما تفقد الرئيس بوتين القوات الروسية المقاتلة قال: "سوف أضرب قادة الشيشان ولو كانوا في المراحيض!".. بالإضافة لتخوف الروس من قيام محور إسلامي بين قيرغيزيا وطاجاكستان وداغستان والشيشان.

أما الشركات البترولية العاملة في القوقاز فلقد عبرت عن تخوفاتها العميقة هي الأخرى، خلال الاتصالات مع وزارة الخارجية الروسية – من الاضطرابات الموجودة في المنطقة، فـ"هلال العنف" أصبح يمتد من "أوس" في قيرغيزيا حتى "جروزني" في الشيشان وهو حافل بخلطة غريبة من المخدرات والمصالح البترولية، ولا تخفى أهمية المحطة الشيشانية في تهريب المخدرات من أفغانستان وباكستان إلى تركيا ثم أوروبا الغربية بوساطة المافيا الشيشانية. فطرق نقل النفط والغاز مهددة في حقيقة الأمر، ومن ثم تحاول الشركات

البترولية العاملة هناك استخدام عدة طرق بديلة لتصدير النفط والغاز، دفاعاً عن مصالحها.

وقد أعربت الحكومة الروسية عن ضيقها الشديد من دبلوماسية الطاقة الأمريكية النشطة التي تحاول توقيف وإعاقة المشروع الروسي الطموح لتصدير غاز منطقة القوقاز عبر روسيا بوساطة خط أنابيب (روسيا – تركيا) والذي يبلغ طوله ١٢٠٠ كيلومتر، ويطلق عليه اسم خط أنابيب (بامال – أوروبا) ومن فوائده رفع قدرة روسيا على التصدير بنحو ٢٠%. وقد وجه وزير الخارجية الروسي إيجور إيفانوف اتهامات قوية للولايات المتحدة أمام المبعوث الأمريكي لشئون الطاقة في بحر قزوين، جون وولف في هذا الشأن والذي قابل هذه الاتهامات بهدوء ، لأن المشروع الأمريكي قد نجح وبدا أقرب للوجود من نظيره الروسي الذي يحوطه الكثير من الغموض، بسبب التمويل وعدم وجود وسائل روسية كافية لإقناع الشركات البترولية والدول في القوقاز للاشتراك فيه.

ومع صدور التقرير النهائي لقانون الاضطهاد الديني في الولايات المتحدة مؤخرا، كانت هناك فقرة تثني بشدة على أداء الحكومة الأذربيجانية ودعمها لحقوق الإنسان، مما يدل على الاهتمام الأمريكي الكبير بموقع أذربيجان على الخريطة السياسية في القوقاز، وأتبع ذلك زيارة ناجحة للرئيس كلينتون لباكو ثم إلى كازاخستان في إطار مساع "دبلوماسية الطاقة" والتي أسفرت عن توقيع اتفاقية إنشاء الخطين مؤخرا بحضور الرئيس كلينتون ورؤساء جمهوريات: تركيا، وأذربيجان، وكازاخستان، وتركمانستان، وجورجيا، وتمت مراسم التوقيع في قصر "شيجاران" العثماني الطراز بالعاصمة أنقرة. وقال الرئيس كلينتون: "هذان الخطان من الأنابيب يشكلان معا بوليصة تأمين للعالم أجمع ،

ويتيح ذلك إمكانية تصدير النفط والغاز عبر بدائل عدة لا تمر بأي عوائـــق أو أماكن اختناق".

وبطبيعة الحال، فإن بوليصة التأمين هذه ستحتاج لحماية، سواء بوســـائل عسكرية لتلك الغاية من خطوط نقل الغاز والنفط عبر ذلك العدد الـــهائل مـــن الكيلومترات، أو بتوافر نفوذ سياسي قوي لا تملكه سوى قوة كبرى تســـتطيع أن تطوع مصالح الشركات البترولية العاملة هناك وسط الخلافـــات السياســـية والقانونية بين دول القوقاز وبحر قزوين.

وعلى صعيد آخر فإن بوليصة التأمين موجهة بصفة مباشرة لمنتجي النفـط من دول منظمة "أوبك" الذين أصبحوا عرضة للاتـــهامات مـــن قبـل الـدول الصناعية، بأنهم السبب الرئيسي لحالة الركود الاقتصادي العالمي "على أساس تمسكهم بآلية الحفاظ على سعر عادل لبرميل النفط ، لا يقل عـــن ٢٢ دولارا ولا يتعدى ٢٨ دولارا" ووسيلتهم في ذلك التحكم في حجم المعروض من النفط.

وثمة بديل ثالث حان الوقت للتحدث عنه. فقد كان أقرب طريـــق لتصديـر النفط والغاز هو مد خطوط أنابيب عبر أفغانستان وباكستان إلى جنوب شـــرق آسيا وتحديداً الصين. ويكفي أن نعلم أن أكبر مستهلك للغاز الطبيعـــي خـــلال العشرين عاماً القادمة سيكون الصين واليابان وكوريا.. والإمداد المطروح مـن الغاز هو قطر أو تركمانستان. ولذلك ضغطت الشـــركات البتروليـــة العملاقـــة العاملة في آسيا الوسطى لتعزيز الإمدادات عبر البديل الثالث الذي نتحدث عنه. وقد ساندت الولايات المتحدة الأمريكية في البداية حكومة "طالبان" على أسـاس أنها المجموعة الأقوى لتأمين هذا المشروع، ثم عندما أفصحت حكومة طالبان عن اتجاهات أيديولوجية غير مريحة لسياسات الغرب بدأ التفكير في معالجـــة أخرى للوضع تتعدى "دبلوماسية الطاقة". وبعـــد نجـاح الحملـــة العســكرية الأمريكية في أفغانستان، تم تثبيت الوجود الأمريكي في آسيا الوسطى، وذلـــك

من شأنه هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على خروج النفط من هذه المنطقة للعالم الخارجي (أول شحنة تجريبية تم شحنها في ١٥ أكتوبر ٢٠٠١ من إنتاج حقل تنجيز الذي تملكه شركة شيفرون وتكساكو في كازاخستان من خط أنابيب قزوين .C.P.C. والخط يشحن يومياً ٥٦٠ ألف برميل وسيبدأ بكامل طاقته عام ٢٠٠٣)، وقد حقق ذلك هدفين.. الأول سياسي بتواجد قوات أمريكية عند بطن جمهورية روسيا الاتحادية وعند ظهر الصين من ناحية أخرى.. وأما الهدف الثاني فهو اقتصادي - جيوإستراتيجي من خلال التأثير على قدرة منظمة أوبك" في ضبط حجم الإنتاج ، والهيمنة على البديل الآسيوي لمسار الغاز والنفط من القوقاز وبحر قزوين إلى الصين، مؤثراً بذلك على الحسابات الاقتصادية الصينية بالنسبة لخطتها التنموية.

سبب الغزو الحقيقي

ويظهر بجلاء أن الولايات المتحدة الأمريكية ترى أن تطويق منظمة أوبك وعلى الأخص مجموعة الدول الموجودة في الشرق الأوسط وتبدأ من إيران إلى المغرب، ضرورة لتأمين احتياجاتها النفطية خلال هذا القرن، ويضاف لمسألة تأمين إمدادات النفط من منطقة "بحر قزوين" مسألة أخرى وهي عدم قدرة نفط هذه المنطقة على استيفاء الاحتياجات الأمريكية إلا بعد فترة زمنية لن تقل عن ١٠ إلى ١٢ سنة، فلا يزال الاعتماد الرئيسي على بترول الشرق الأوسط، ولكن نفط بحر قزوين ضروري كاحتياطي في تقليم أظافر دول منظمة أوبك ، وكعامل تهديدي عند التفكير في استخدام سلاح رفع الأسعار.

ولقد وصلت قيمة فاتورة الواردات البترولية في الولايات المتحدة نحو ٩٠ مليار دولار سنوياً ! ويتوقع أن يرتفع استهلاكها عند تمام ٢٠٢٠ إلى نحو ٢٦ مليون برميل / يومياً (أي ما يزيد بمليوني برميل على كل إنتاج دول منظمة أوبك اليوم !) بينما لن يتجاوز إنتاج الولايات المتحدة الأمريكية المحلي

في ذلك العام عن ٩ ملايين برميل يومياً، ويصبح مقدار العجز المغطى بالاستيراد ١٧ مليون برميل يومياً.. وهذا الرقم المخيف للعجز، يجعلها راغبة بشراسة في تأمين احتياجاتها بأي وسيلة ولكن ليس بأي ثمن. فهي تريد دائماً إمدادات بترولية مستمرة ولكن بسعر رخيص أو معقول في تصورها.

لذلك.. كانت أحداث ١١ سبتمبر الإرهابية وسيلة لإخراج الخطط الحربية من الأدراج لتصبح القوات الأمريكية بنفسها في أفغانستان ، بعد أن ثبتت أقدامها في منطقة الخليج، وحان الدور على العراق.

مستشار الرئيس الأمريكي للشئون الاقتصادية أعلن في بداية شهر أكتوبر الماضي، أن السبب المباشر لغزو العراق هو السيطرة على بترولها.

والحقيقة أن الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ سبتمبر، فقدت الكثير من الثقة في النظام السعودي، بعد اشتراك عدد كبير من الشباب السعودي في العمليات الإرهابية التي تمت في ذلك اليوم. ولوحظ أن الإدارة الأمريكية خفضت من استيرادها من البترول السعودي بنحو ثلاثة ملايين برميل عوضتها بالبترول الروسي ، وذلك رغم العلاقة الاستراتيجية التي لا تزال تربط الولايات المتحدة الأمريكية بالنظام السعودي.

ومن ثم فالأهمية التي تعلقها الإدارة الأمريكية على نفط العراق.. بالإضافة إلى أن الوجود العسكري الأمريكي في العراق، سوف يهدد ويقلق ويربك القيادة في إيران، كما أنه سيحمي ظهر القوات العسكرية الأمريكية الموجودة بالقرب من نفط بحر قزوين.

وثمة عنصر آخر في الاستراتيجية الأمريكية للسيطرة على بترول الشرق الأوسط، وهو التسابق مع دول الاتحاد الأوروبي، بحيث تكون الثمار المبكرة لصالح الشركات البترولية الأمريكية، وهكذا كان السباق الذي حدث والفوز الذي أحرزته الشركات البترولية لاستخراج البترول من أراضي المملكة

المغربية، وتزايد نفوذ الشركات الأمريكية في الجزائر في مجال النفط والغـاز، وعودة الشركات الأمريكية للعمل في الجماهيريـة الليبيـة بعـد أحـداث ١١ سبتمبر، وأخيراً الرغبة في السيطرة على نفط الجنوب السوداني، حيث تضمن تقرير السناتور "دانفورث" الشهير تقسيم عوائد النفط بين الجنوب والشمال.

النفط الرخيص مع الإمدادات المستمرة منه.. جوهر الاستراتيجية الأمريكية في التعامل مع بترول الشرق الأوسط.. وهذا التعامل تـم بوسـائل متعـددة.. المؤتمرات والضغوط والمعارك الحربية والابتزاز والتفاوض وتغيـير النظـم السياسية ولاتزال لعبة الصراع مستمرة.. والبترول وقود الحرب القادمة بيـن الولايات المتحدة والعراق.. وسيكون للشرق الأوسط وجه آخر مختلف.

فكـــــرة

كتلة يسارية

فى الفناء الخلفى للولايات المتحدة

■ نبيل زكى

رغم الادعاءات الأمريكية الكاذبة والمضللة حول الديمقراطية .. إلا أن واشنطن لم تتوقف عن التآمر للاطاحة بحكم فيدل كاسترو فى كوبا وهوجو شافيز فى فنزويلا ، وخاصة بعد أن تشكلت كتلة يسارية فى نصف الكرة الغربى ، وبالتحديد فى «الفناء الخلفى» للولايات المتحدة (وفقا للتسمية الاستعمارية التقليدية) تضم البرازيل إلى جانب كوبا وفنزويلا.

ومنذ انتخب الرئيسى الفنزويلى هوجوشافيز وهو يواجه سلسلة من المؤامرات والهجمات المنظمة على يد اتباع الولايات المتحدة وممثلى شركات البترول . ولم تتوقف محاولات الاطاحة بالرئيس الذى جرى انتخابه بطريقة ديمقراطية .. وسط نشاط محموم يسعى وراء تكرار تجربة الزعيم اليسارى التشيلى سلفادور الليندى.

ورغم أن ولاية شافيز تنتهى فى عام ٢٠٠٧، إلا أن خصومه يصرون على استقالته من منصبه! ووسيلتهم فى ذلك هى تحريك المظاهرات وبعض ضباط الجيش والمراهنة على تفتيت وحدة القوات المسلحة (التى أعلن البعض منها أنه فى حالة تمرد) وتعميم الفوضى بحجة أن شافيز يدفع البلاد نحو نظام شيوعى يستلهم النماذج الاشتراكية فى الحكم.

وقد تحول شافيز إلى خصم حقيقى للولايات المتحدة بعد إصراره على زيارة العراق فى عام ٢٠٠٠

متحديا الحظر المفروض على هذا البلد، ودفاعه عن مصالح دول الاويك وحقها فى سعر عادل لبترولها، ويعد إدانته للحرب الأمريكية ضد الشعب الافغانى ووصفها بالمجزرة، وكذلك بعد أن انتقد الوجود الأمريكى فى كولومبيا ، وأقام علاقات جديدة مع الدول التى وضعتها واشنطن ضمن« محور الشر» ، وعزز علاقاته مع الصين.

وتقف دوائر البيت الأبيض والبنتاجون ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية وشركة البترول المحلية وراء محاولات الإطاحة بشافيز والسيطرة على فنزويلا، التى هى خامس دولة مصدرة للبترول فى العالم(تنتج ١ر٣ مليون برميل يوميا)، ويصل بترولها إلى الولايات المتحدة خلال ست ساعات على الأكثر ، بينما بترول السعودية والعراق يستغرق وصوله إلى الأسواق الأمريكية حوالى الخمسين يوما مع ما يعنيه ذلك من ارتفاع فى التكاليف.

ويقف شافيز حجر عثرة أمام مشاريع أمريكية فى حقل الغاز الطبيعى وأمام استثمارات أمريكية تقدر بأربعة مليارات دولار تؤتى ثمارها فى شكل عائدات ضخمة للشركات والبنوك الأمريكية.

ويزيد من خطورة استمرار شافيز على رأس البلاد فى فنزويلا- من وجهة النظر الأمريكية-.. تولى الزعيم اليسارى «لويس انياسيو لولا داسيلفا» رئاسة البرازيل، أكبر دولة فى أمريكا اللاتينية، والدولة الخامسة فى العالم من حيث عدد السكان والثامنة فى الاقتصاد) . ويطرح «لولا» برنامجا اشتراكيا ديمقراطيا جذريا لمعالجة البؤس فى بلاده والقضاء على الفقر ومكافحة الفساد ومحو الأمية ومنح أراضى زراعية للفقراء (أكثر من خمسين مليون فقير) وتوفير وجبات الافطار والغداء والعشاء لمواطنيه «حتى يحقق رسالة حياته»، وتوسيع نطاق التعليم وتطويره وتوفير عشرة ملايين وظيفة ومضاعفة الأجور.

ويعترف أستاذ علم السياسة بجامعة برازيليا ديفيد فلايشر (وهو أمريكى) بان فوز «لولا» بالرئاسة فى البرازيل «يكشف مدى خيبة الأمل فى البلاد من اقتصاد السوق».

وكان الرئيس الأرجنتينى« إدواردو دوهالدى» قد أوضح، من قبل ، إن الأزمة فى أمريكا اللاتينية تؤكد أن نموذج اقتصاد السوق قد انهار فى المنطقة.

المهمة إلى تواجه «لولا» فى البرازيل شاقة للغاية .. فهل يستطيع الرجل الذى بدأ حياته ماسح احذية قبل أن يلتحق بصفوف العمال ثم يتحول إلى زعيم نقابى وسجين رأى ومناضل من أجل الحريات وخصم للديكتاتورية العسكرية ، وداعية للعولمة البديلة،.. أن يواجه التحدى وينجح فى تطبيق مشروع« استعادة الكرامة للشعب البرازيلى»؟.

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

تصدر شهريا عن حزب التجمع

رئيس مجلس الادارة : رفعت السعيد   رئيس التحرير: فريدة النقاش

ملاحظات على تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٢

د . إبراهيم العيسوى

برعاية كريمة من البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة والصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى ، عكفت نخبة من العلماء والمفكرين العرب على إعداد تقرير عن أحوال التنمية البشرية – أو التنمية الإنسانية على حد تعبير التقرير – فى الوطن العربى . وقد صدر التقرير فى صيف ٢٠٠٢ ، وكانت له أصداء قوية فى الإعلام الغربى والعربى . كما يتوقع أن تكون له ردود فعل قوية أيضاً – إيجابية وسلبية – فى الدوائر العلمية والثقافية فى الوطن العربى .

ويبدأ التقرير بنظرة عامة بعنوان " مستقبل للجميع " ، تلخص أهم ما استخلصه مؤلفو التقرير من تحديات تواجه الوطن العربى ، وأهم عناصر الاستراتيجية التى يعتبرونها كفيلة بمواجهة هذه التحديات . ثم تبدأ فصول التقرير (ثمانية فصول) بفصل أول يعرّف التنمية الإنسانية ويبلور مفهومها ، ويناقش المؤشر الذى صاغته التقارير الدولية للتنمية البشرية منذ عام ١٩٩٠ (وسوف نطلق عليه المؤشر التقليدى) ، ويقترح مؤشراً بديلاً يحيط بعدد أكبر من القضايا أو العناصر الواردة فى مفهوم التنمية الإنسانية (وسوف نطلق عليه المؤشر البديل) . يلى ذلك الفصل الثانى الذى يستعرض أوضاع التنمية الإنسانية العربية ، مبرزاً عدداً من المقارنات بين مجموعة الدول العربية ومجموعات إقليمية مختلفة ، ومبيناً المجالات الرئيسية التى يتركز فيها العجز فى التنمية البشرية .

ثم يركز التقرير فى الفصلين الثالث والرابع على عملية بناء القدرات البشرية فى مجالات الصحة والبيئة والتعليم . وبعد ذلك يتم تناول مسألة توظيف القدرات البشرية أولاً فى اكتساب المعرفة وإنتاجها (الفصل الخامس) ، وثانياً فى استعادة النمو الاقتصادى وزيادة التشغيل وتخفيف حدة الفقر (الفصل السادس) . ويعالج الفصل السابع قضية الحكم ، وفى القلب منها مسالة الحريات وبناء مؤسسات الحكم الصالح . وأخيراً ، وبحكم السمة العربية للتقرير ، وتركيزه على أوضاع الوطن العربى فى مجموعه ، فقد خصص الفصل الثامن والأخير من التقرير لقضية التعاون العربى .

منهج جرئ

ومن أهم ما أبرزه التقرير أنه من السابق لأوانه الاحتفال بالإنجازات التنموية للبلدان العربية ، حتى طبقاً للمقياس التقليدى للتنمية البشرية . فبالرغم من الإنجاز المتحقق فى مجالات شتى رصدها التقرير (زيادة توقع العمر عند الولادة – انتشار التعليم – تحسن أوضاع المرأة – تخفيض مستوى الفقر المادى المدقع – بعض خطوات على طريق الديمقراطية – بناء عدد كبير من مؤسسات العمل العربى المشترك ... الخ) ، إلا أن المقارنات الدولية تبرز أن معدلات التقدم أقل فى المجموعة العربية عن المجموعات الإقليمية الأخرى فى عدد كبير من المجالات .

ويوضح التقرير أن أبرز مجالات القصور فى الأداء التنموى هى مجال الحريات ، ومجال المعرفة ، ومجال تحرير المرأة وتمكينها . ولذا فقد ركزت الاستراتيجية المقترحة للارتقاء بالتنمية البشرية فى الوطن العربى ومواجهة تحديات العصر على " هذه النواقص " أو " التحديات " الثلاثة . واعتبر التقرير أنه " يمكن للمعرفة المتطورة ، بمعناها الواسع ، والتقدم فى مجال الحريات الإنسانية ، كما تتجلى فى المشاركة السياسية والاقتصادية ، بالإضافة إلى تقدير سليم لدور الثقافة والقيم (شاملة القيم المتصلة بالمساواة بين الجنسين واحترام حقوق الأطفال والشباب وثقافة الجودة والانفتاح) يمكنها مجتمعة أن تشكل أسساً لمنهج تنمية إنسانية فى المنطقة العربية ، يستجيب لتطلعات الناس إلى حياة أفضل ، ويستفيد من القوى التى تشكل القرن الحادى والعشرين " .

ويتلخص تعليقى على تقرير التنمية الإنسانية العربية فى الملاحظات العشر التالية :

- لاشك أن تقريراً كهذا كان مطلوباً ، خاصة بعد مرور ١٢ سنة على صدور أول تقرير عالمى عن التنمية البشرية ، توالى خلالها صدور تقارير وطنية عن التنمية البشرية فى ١٧ بلداً عربياً . وعلاوة على صدور بعض التقارير الإقليمية للتنمية البشرية ، فقد أخذ تقرير التنمية البشرية العالمى مؤخراً فى نشر تقديرات للمؤشرات المختلفة للتنمية البشرية فى مناطق مختلفة من العالم ، من بينها المنطقة العربية . وهو ما يؤكد الحاجة إلى رصد أكثر عمقاً وتقييم أكثر شمولاً لأوضاع التنمية البشرية فى الوطن العربى ، لاسيما أن العرب لا تعوزهم الوسائل المادية ولا الخبرات البشرية اللازمة للقيام بمثل هذا العمل . وقد كان فى صدور التقرير العربى وما أحدثه من أصداء عربية وعالمية ، وفى طبيعة المادة المهمة التى قدمها هذا التقرير بخصوص تقييم أوضاع التنمية البشرية واقتراح السبل الكفيلة بتحسينها ، تأكيدات إضافية لكون الساحة العربية كانت تفتقر إلى تقرير كهذا . ومن هنا فإننى أرحب – بحرارة – بصدور هذا التقرير .

- هل أتى التقرير بجديد فى مجال التنمية العربية ؟ فى تقديرى ، أن التقرير قد أتى بالجديد والمفيد فى هذا الشأن ، حتى إذا كانت بعض المعلومات أو الاستنتاجات الواردة فيه بخصوص هذا الموضوع أو ذاك معروفة من قبل . فالجديد والمفيد حقاً هو محاولة رسم صورة شاملة ومتعددة الأبعاد لأوضاع التنمية فى الوطن العربى ، وذلك بوضع المعلومات المستمدة من مصادر متعددة جنباً إلى جنب ، وبعقد المقارنات بين مجموعة الدول العربية والمجموعات الإقليمية الأخرى ، وبتسليط الأضواء على ما يعتبره معدو التقرير أوجه قصور جوهرية فى الأداء التنموى العربى ، وفى البنى المؤسسة والاستراتيجيات والسياسات التنموية العربية – قطرياً وقومياً .

- وليس من المبالغة القول إن تقديم الصورة الشاملة للأداء التنموى العربى قد خلّف شعوراً بالصدمة لدى قطاعات واسعة ليس فقط من المثقفين والمفكرين العرب ، بل ولدى قطاع غير صغير من الاختصاصيين فى هذا المجال أو ذاك من مجالات التنمية . وفى تقديرى أن هذا الشعور

بالصدمة يؤكد أن جانباً من المعلومات التى تم وضعها جنباً إلى جنب مع إبراز ما بينها من علاقات ، لم يكن معروفاً ، أو لم يكن فى متناول الكثيرين ، بمن فيهم بعض الاختصاصيون . وذلك خلافاً لما زعمه بعض المعلقين على التقرير .

- من حسنات التقرير صراحته وجرأته فى طرح المشكلات الراهنة والتحديات المستقبلية ، وعدم التزامه بالمعالجة " الدبلوماسية " التى عادة ما تلاحظ فى التقارير العالمية أو القطرية للتنمية البشرية . فهو وإن كان قد ذكر الجوانب الإيجابية فى الأداء التنموى ، إلا أنه أبرز أنها محدودة ومعدلات تقدمها بطيئة فى أغلب الأحوال . كما سلط الضوء على الجوانب السلبية للمسيرة التنموية العربية باعتبار أن إدراكها والوعى بمداها الحقيقى هو أول الطريق نحو الارتقاء بأوضاع التنمية البشرية فى الوطن العربى . والتقرير من هذه الزاوية واقعى ، أكثر منه تشاؤمى . بل إنه يمكن القول إن التقرير يتضمن رؤية تفاؤلية مشروطة ، لعل الاقتباس التالى من التقرير يجسدها : " إن الفكرة المتكررة فى ثنايا هذا التقرير هى أن قدرات المنطقة العربية القائمة والكامنة تمثل مصادر قوة لم يتم الانفتاع بها على نحو كاف " . ومن ثم فإن التقرير يعتبر أن التقدم ممكن شريطة إحداث تغييرات جوهرية فى عدد من الأمور . من أبرزها : الرؤية العربية للتنمية ، لاسيما دور المعرفة والحريات والمرأة فيها – التنظيم المجتمعى والحكم بمعناه الواسع– نسق الحوافز العلاقات العربية – العربية . ومن حسنات التقرير أيضاً لغته الرصينة المحكمة والمكثفة من جهة والاستثارية والتحريضية من جهة أخرى .

التراكم الرأسمالى

- غير أن رغبة مؤلفى التقرير فى الإيجاز ، وربما أيضاً رغبتهم فى تسليط الأضواء بشدة على جوانب معينة دون غيرها ، قد أدت إلى إغفال تناول بعض القضايا المهمة ، أو إلى خفوت الضوء الملقى عليها . ومن أهم القضايا التى كانت تستحق عناية أكبر من جانب واضعى التقرير : قضايا النمو الاقتصادى والأداء الاقتصادى بوجه عام ، لاسيما قضية الانفلات فى أنماط الاستهلاك والاستيراد ، وضعف معدلات الادخار والاستثمار المحلى ، وعدم قدرة معدلات الادخار

التقليدى على تعويض النفاد أو التدهور فى الموارد الطبيعية (وبخاصة النفط) ؛ وهو ما كان يستوجب استدعاء مفاهيم جديدة مثل مفهوم رأس المال الشامل الذى يضم رأس المال المادى ، ورأس المال الطبيعى ورأس المال البشرى ، ومفهوم الادخار الأصيل الذى يأخذ فى الاعتبار التآكل أو النفاد فى كل من رأس المال المادى ورأس المال الطبيعى من جهة ، والإضافة إلى رأس المال البشرى من جهة أخرى . فالحق أن الوطن العربى يواجه مشكلة كبرى ليس فقط فى مجال تنمية رأس المال البشرى ، وهو الأمر الذى حظى بعناية كبيرة فى التقرير ، بل وفى مجال تنمية رأس المال المادى أيضاً . وفى تقديرى أن قضية التراكم الرأسمالى ، خاصة بعد فوات عصر الفوائض النفطية وتعرض معظم الدول النفطية للعجز فى ميزانياتها ، لم تزل من القضايا الملحة والجديرة بالاهتمام فى الأقطار العربية .

ولا شك أنه لو كان قد تم تناول قضية رفع معدل الادخار المحلى ، وإيضاح ما يتطلبه ذلك من ضبط لمعدلات الاستهلاك والاستيراد ، لكانت قد طرحت قضايا أخرى فى غاية الأهمية مثل قضية تحرير التجارة واندفاع معظم الدول العربية إلى إزالة الكثير من القيود على تجارتها الخارجية ، بل وعلى حركة رؤوس الأموال فى بعض الأحيان ، ومثل قضية دور الحكومات فى التنمية . والحق أن التقرير قد تعامل مع هاتين القضيتين على أنهما من القضايا المحسومة لصالح اتجاه الليبرالية الاقتصادية الجديدة ، مع أن البحث عن دروب جديدة للارتقاء بالتنمية البشرية كان يستوجب اعتبارهما من القضايا الجدلية القابلة للنقاش ، خاصة فى ضوء ما أسفرت عنه خبرات الانخراط فى العولمة وتحرير الاقتصاد وتراجع دور الدولة من نتائج سلبية فى الواقع العربى .

أما القضايا التى كان الضوء الملقى عليها خافتا بشكل ملحوظ فى التقرير ، فمن أبرزها قضية البيئة وقضية التعاون الاقتصادى العربى . فقد اقتصرت معالجة قضية البيئة على شح الموارد الطبيعية ، لاسيما المياه والأرض ، والتلوث ، بينما لم يتطرق التقرير لقضية استنفاد الموارد الطبيعية غير المتجددة بالقدر الكافى ، وبخاصة استنفاد النفط ، ومدى قدرة الدول العربية على

توليد مدخرات كافية لاستعواض النقص فى رصيدها من الموارد الطبيعية غير المتجددة . أما قضية التعاون العربى ، فقد تم تناولها بشكل تسجيلى أكثر منه تحليلى ، ولم تتجاوز المقترحات التى قدمت بشأنها النطاق التقليدى المعتاد . واتسم ما طرحه التقرير من أفكار مثل مثلثات التنمية ومنطقة المواطنة العربية بشئ غير قليل من الغموض ، ناهيك عن عدم ربطهما ببعض المفاهيم التى نادى بها بعض شيوخ الاقتصاديين العرب فى السابق مثل الإنماء التكاملى أو التكامل الإنمائى .

- وفيما يتعلق بما اعتبره التقرير نواقص أساسية واجبة الاستكمال أو تحديات جوهرية يتعين مواجهتها للنهوض بالتنمية البشرية وهى : المعرفة والحريات وتمكين المرأة ، يمكن طرح ملاحظتين الأولى هى إن هذه المجموعة من النواقص قد لا تكون – على أهميتها – شاملة لكل ما هو مهم وجوهرى . والثانية هى أن المجموعة تضم أموراً قد لا تكون جديرة بالأولوية ، وذلك باعتبار أن كل ما هو ناقص ليس بالضرورة محل أولوية فى سياق وضع الاستراتيجيات ورسم السياسات التنموية .

فأما أن أموراً مهمة قد تركت خارج مجموعه النواقص أو التحديات ، فهذا واضح حتى بالرجوع إلى التقرير ذاته . إذ يذكر التقرير فى مواضع أخرى قضايا مهمة مثل الفقر ، مع طلب " وضع مكافحة الفقر على رأس أولويات برامج العمل الوطنى فى البلدان العربية " . وبرغم أن فصلاً كاملاً قد خصص لقضية التعاون العربى ، فضلاً عن الإشارة إلى هذه القضية فى فصول أخرى ، فإنها لم تظهر ضمن قائمة النواقص والتحديات . وإلى جانب هذا وذاك ، ثمة قضايا أخرى مهمة لم ترد ضمن مجموعة النواقص والتحديات مثل بناء القدرات الإنتاجية العربية وتنمية القدرات الادخارية المحلية ومواجهة تحديات العولمة .

وأما أن بعض القضايا التى تضمنتها مجموعة النواقص والتحديات ليست جديرة بالأولوية ، على أهميتها . نذكر من ذلك قضية المرأة . فالأرجح أن تحسين وضع المرأة نتيجة وليس شرطاً للارتقاء بالتنمية البشرية ، حيث إن هذا التحسين محصلة تطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية شتى وليس رهنا بقرار سياسى أو بإجراء تشريعى إلا فى حالات قليلة . وإسقاط تمكين المرأة من قائمة الأولويات لا يعنى بالطبع التوقف عن فتح مجالات التعليم والعمل أمامها ، وإزالة صور التمييز ضدها . كما أنه لا يعنى التوقف عن متابعة التطور فى أوضاع المرأة من خلال المؤشرات المناسبة .

أضف إلى ما تقدم أن التقرير لم يتضمن تأسيساً واضحاً وقوياً لاختياره للنواقص أو التحديات الثلاثة . فكان من الواجب استباق بعض الاعتراضات على تضمين مسألة الحريات وحقوق الإنسان مثلاً ضمن مجموعة النواقص والتحديات . إذ أن هناك آراء تستند إلى شواهد تاريخية مهمة بأن التنمية يمكن أن تتحقق حتى فى ظل نظم حكم ديكتاتورية . كما أن التقرير ذاته قد أضعف حجيته فى اختيار النواقص الثلاثة عندما أورد نتائج لتحليل الارتباط بين كل من العناصر الثلاثة الناقصة من جهة ، وبين مؤشر التنمية البشرية التقليدى من جهة أخرى ، تظهر غياب أى ارتباط واضح بينها . وحيث إن مؤشر التنمية الإنسانية الذى اقترحه التقرير على ارتباط قوى مع مؤشر التنمية التقليدى (إذ بلغ معامل ارتباط الرتب بينهما ٠,٩) ، فإن النواقص الثلاثة تعتبر غير مرتبطة ارتباطاً قوياً مع ما يعتبره التقرير مؤشراً أفضل للتنمية البشرية . ومن أسف أن التقرير لم يعلق على هذه النتائج الإحصائية ، ولم يقدم حججاً بديلة – منطقية أو تاريخية – تبرز سلامة اختياره للقضايا الثلاث . وهذا النقد لا يعنى اعتراضى على إدراج الحريات والمعرفة كمسائل ذات أولوية فى استراتيجيات وسياسات التنمية . إذ أننى من الذين يعتبرون هاتين المسألتين من الأمور الحاسمة فى التنمية – إلى جانب أمور أخرى حاسمة

أيضاً . فليس للتنمية الشاملة فى هذا العصر مفتاح واحد . وسوف نعود إلى هذه المسألة فى الملاحظة التاسعة .

- وفيما يتعلق بموقف التقرير من مفهوم التنمية البشرية ، فمن الملاحظ أن النسخة العربية من التقرير قد وصفت التنمية بـ " الإنسانية " بدلاً من " البشرية " التى درجت النصوص العربية لتقرير التنمية البشرية العالمى وكذا التقارير الوطنية العربية على استعمالها . ولا أظن التقرير يقدم هنا مفهوماً جديداً مختلفاً عما أتت به تقارير التنمية البشرية العالمية . وفى اعتقادى أن مؤلفى التقرير قد اعتبروا أن " إنسانية " هى ترجمة أدق من " بشرية " للفظ الانجليزى **human** . وبالرغم من موافقتى على هذا الرأى ، وذلك باعتبار أن ما يندرج تحت صفة " الإنسانية " من معان كالعطف والرحمة والتعاون على البر ودفع الشر ليست بالضرورة متوافرة فى كل البشر ، إلا أننى أعتقد أنه قد فات أوان تدقيق الترجمة بعد مرور ١٢ عاما على استقرار العمل بالترجمة الأقل دقة للفظ الإنجليزى . فنحن لم نعد إزاء " لفظ " ، بل إزاء " مصطلح " لم يعد ثمة خلاف يذكر حول ما الذى يشير إليه .

- أما فيما يتعلق بقياس التنمية البشرية ، فإن التقرير قد اقترح مؤشرا بديلا للمؤشر التقليدى للتنمية البشرية الذى درجت تقارير التنمية البشرية العالمية والوطنية على استعماله . والمؤشر البديل يستبقى مؤشرين فرعيين من المؤشرات الفرعية للمؤشر التقليدى، وهما العمر المتوقع عند الولادة والتحصيل التعليمى ، ويستبعد المؤشر الفرعى الثالث وهو الدخل الفردى . ويضيف التقرير أربعة مؤشرات فرعية أخرى ، وهى الحرية ، وتمكين النوع ، والاتصال بالإنترنت (كمؤشر يعبر عن مدى قصور المعرفة ومدى الانتفاع بفرص العولمة) ، وانبعاثات ثانى أكسيد الكربون (تعبيرا عن مدى مساهمة الدولة فى الإضرار بالبيئة العالمية) .

ويدرك أصحاب التقرير أنه يمكن أن ترد على هذه المؤشرات تحفظات كثيرة ، وأنها قد لا تكون هى الأكثر ملاءمة للتعبير عن الظواهر محل الاهتمام . ولذا فقد اعتبروا أن المؤشر البديل هو مجرد اقتراح " جدير بالمحاولة والتشذيب " . وقد أغنونا بذلك عن تقديم نقد تفصيلى

للمؤشر البديل ، فيما خلا مسألة واحدة جديرة بالذكر ، ألا وهى استبعاد التقرير لمؤشر الدخل - أو أى مؤشر آخر للأداء الاقتصادى - من المؤشر المقترح للتنمية البشرية .

النمو الاقتصادى

فمع التسليم بعدم ملاءمة مؤشر الدخل الفردى كمقياس للرفاه الإنسانى ، إلا أن ذلك ليس مبرراً كافياً لاستبعاد الدخل أو النمو الاقتصادى من مقياس التنمية البشرية . فمن منظور القدرات الإنسانية ، يعتبر الدخل شرطاً ضرورياً لامتلاك هذه القدرات ، أو التمكن من استعمالها لصالح تنمية البشر ولصالح انتفاعهم بثمار التنمية . والنمو الاقتصادى وإن لم يكن كافيا لتحقيق التنمية البشرية ، إلا أنه ضرورى ولا غنى عنه من أجل تحقيقها . ومن جهة أخرى ، من المعروف أن تعدد أبعاد التنمية البشرية يستوجب اشتمال مؤشراتها ، ليس فقط على مؤشرات الغايات ، بل وعلى مؤشرات الوسائل أيضاً التى تساعد فى إظهار ما يبذل من جهود تنموية على المدى القصير أو المتوسط ،إن لم تظهر نتائجها إلا على المدى الأبعد . ومن أهم هذه الوسائل الدخل أو النمو الاقتصادى . ومما يسترعى الانتباه أن التقرير قد وقع هنا فى الخطأ نفسه الذى رصده بالنسبة للمؤشر التقليدى للتنمية البشرية . إذ أخذ التقرير على هذا المؤشر أنه " مركب من نتائج التنمية على الأجل البعيد . وعليه فليس باستطاعته، أن يعكس مدخلات الجهود المتضمنة فى السياسات ، أو يقيس الإنجازات الإنسانية على الأجل القصير " ! .

ومما يذكر أخيراً فى مسألة القياس ، أن التقرير قد وجد ارتباطاً إحصائياً قوياً بين المؤشر التقليدى والمؤشر البديل للتنمية البشرية (على ما سبق ذكره فى الملاحظة الخامسة) . وإذا كان التقرير قد فسر ارتفاع معامل الارتباط بين المؤشرين على أنه " دليل على انتمائهما إلى العائلة نفسها من مقاييس التنمية " ، فإنه من الوارد تقديم تفسير أدق بأن المؤشر البديل لم يتضمن معلومات إضافية تمثل تغييراً جوهرياً بالقياس إلى المؤشر التقليدى للتنمية البشرية .

- في تقييمه لأوضاع التنمية البشرية في البلدان العربية (الفصل الثانى) ، عزز التقرير تحليلاته المستندة إلى ما يعتبر عادة " مؤشرات موضوعية " ، بتقديم " مؤشرات ذاتية " تستند إلى استبيان للتعرف على اهتمامات الشباب العربي وتوجهاتهم . وهذا بلا شك اتجاه صائب . إذ إن استيعاب الجوانب المتعددة والمركبة للتنمية البشرية يستدعى - كما ذكرنا سابقاً - استعمال أصناف مختلفة من المؤشرات جنباً إلى جنب . ولكن النقد الذى يوجه للتقرير فى هذا الصدد يتعلق بمستوى جودة تنفيذه لهذا التوجه الصائب .

فقد استند التقرير إلى آراء ١٢٨ شاباً من خمسة بلدان عربية (أضيفت إليها نتائج آراء مجموعة من شباب السعودية تحصل عليها التقرير من مصدر منشور) ، أى بمعدل ٢٥ شاباً لكل بلد ، بما فيها بلد عربي مثل مصر يناهز عدد سكانه ٧٠ مليوناً . كما استند التقرير إلى آراء ١١٢ طفلاً عربياً من ١٤ دولة عربية ، أى بمعدل ٨ أطفال من كل بلد . ومن ثم فمجموعة (ولا أقول عينة) الشباب والأطفال التى أبرز التقرير نتائج تحليل ما أدلوا به من إجابات فى الاستبيان هى مجموعة جد محدودة ، ومن الصعب - إن لم يكن من المستحيل - الوثوق فى نتائجها أو التعويل عليها فى تقرير إقليمى عربى كهذا الذى نحن بصدده .

- وفيما يتعلق بدفع عجلة التنمية فى البلدان العربية ، ذكر التقرير أمرين جديرين بالتأمل . الأمر الأول هو أن " التربية يمكن أن تكون قاطرة للتقدم . وهى كذلك بالفعل فى المجتمعات المتقدمة " . وفى تقديرى أن التقدم ليست له قاطرة واحدة . بل إن التشبيه بالقطار والقاطرة قد لا يكون مناسباً أصلاً فى مجال التنمية ، وذلك لما يوحى به من خطية فى التنمية ومن إمكانية تحريك عملية التنمية بمفتاح واحد . وربما يكون من الأصوب الحديث عن التخلف كدائرة مغلقة أو خبيثة تحتاج إلى أن تكسر من أكثر من نقطة على محيطها من أجل تحقيق التنمية المنشودة . وإضافة إلى حاجة التنمية إلى ما هو أكثر من " التربية " ، فإنه لا يمكن إغفال العلاقة العكسية بين النمو الاقتصادى والتربية ، حيث يمكن أن يكون النمو الاقتصادى أداة فاعلة فى الارتقاء بأحوال التربية . وأخيراً ، فحتى لو كانت التربية هى قاطرة التقدم فى

المجتمعات المتقدمة المعاصرة ، فإنها ليست كذلك بالنسبة لمجتمعات لم تخرج بعد من دائرة التخلف ، كما أنها لم تكن كذلك حتى في هذه المجتمعات المتقدمة أثناء سعيها للخلاص من التخلف منذ بضعة قرون خلت.

حرق المراحل

أما الأمر الثانى الذى يطرحه التقرير فى شأن دفع المسيرة التنمية ، فهو التعويل كثيراً على دور قطاع المعلومات ، وقطاعات الخدمات الكثيفة للمعلومات فى " تحريك الازدهار الاقتصادى بقوة فى البلدان العربية " ، وذلك استناداً إلى أن هذه القطاعات تعطى قيمة مضافة أعلى من مشاريع الصناعة التحويلية التقليدية . وهنا مبالغة لا مبرر لها فيما أرى . فمع التسليم بأهمية المعلوماتية والاتصالات وما إليها من خدمات متطورة ، إلا أنه من السابق لأوانه التعويل على مثل هذه القطاعات فى تقدم البلدان العربية . إذ إن التقدم الذى تحققه البلدان المتقدمة حالياً ، وما يرافقه من بروز متزايد لقطاعات الخدمات المتطورة ، إنما يرتكز على قاعدة إنتاجية مادية متطورة سبق بناؤها عبر فترات طويلة ، أساسها الزراعة والصناعات التحويلية . ومن ثم فليس من الوارد بالنسبة للعرب حرق مرحلة تطوير الزراعة والتصنيع والقفز فوراً إلى عالم الخدمات كثيفة المعرفة ، كما قد يفهم من التقرير . وهذا لا يعنى بالطبع عدم الانفتاح على قطاعات الخدمات المتطورة ، وتفعيل دورها فى الاقتصادات العربية . ولكن هذا شئ ، واعتبارها ذات دور حاسم أو محورى فى التنمية العربية المعاصرة شئ آخر .

- وثمة ملاحظة أخيرة حول مستقبل هذا التقرير ؛ تحديداً فيما يتعلق بدورية التقرير ومحتواه فى إصداراته القادمة . إننى لست من المتحمسين لإصدار تقرير سنوى عن التنمية البشرية العربية ، وهذا لما يفرضه ذلك من أعباء علمية ومالية وإدارية ضخمة ولا مبرر لها من حيث المردود المتوقع . وتجدر الإشارة إلى أن الإصدار السنوى قد لا يجد من المادة الجديدة بين عام وآخر الكثير الذى يمكن تعديل تقييم الأداء التنموى العربى السنوى بناء عليه . كذلك فإن وراء التقرير جهداً بحثياً كبيراً ، من خلال ما يعد له من أوراق فنية أو خلفية . وهذه الأوراق

ليس من الميسور إنجازها بإتقان خلال شهور قلائل . ومن ثم فإنني أحبذ المباعدة بين الإصدارات المختلفة للتقرير ، بحيث يصدر التقرير كل ٣ إلى ٥ سنوات .

أما فيما يتعلق بمحتوى الإصدارات التالية من التقرير ، فإنني أعتقد أن الوفاء لشمولية واتساع وتعقد مفهوم التنمية البشرية ، يستوجب أن يختص التقرير بالتقييم الشامل للأداء التنموى العربى ومتابعة مسيرة التنمية البشرية فى مختلف جوانبها فى الوطن العربى . وهذا التوجه ينسجم بالطبع مع اقتراح المباعدة بين الإصدارات المختلفة للتقرير، وتجنب الإصدارات السنوية . وفى تقديرى أن هذا التوجه أفضل من النهج الذى اتبعته التقارير العالمية والوطنية للتنمية البشرية ،حيث يقدم التقرير الأول نظرة شاملة لمختلف جوانب التنمية البشرية ، ثم تركز التقارير التالية على قضية بعينها من قضايا التنمية البشرية . إذ إنه ليس هناك عجز يذكر فى التقارير والدراسات والمؤتمرات التى تركز على القضايا الجزئية للتنمية . ولكن العجز الأكبر يكمن فى التقارير والدراسات التى تعنى بتقييم الأداء العربى من المنظور الشامل والواسع والمركب للتنمية البشرية .

وفى الختام ، أشدد على أن غاية هذه الملاحظات العشر هى تعزيز قيمة التقرير وزيادة مساهمته فى استنهاض الهمم وتسريع الخطى على طريق تقدم العرب ونهضتهم . فبالرغم من كل هذه الملاحظات يبقى التقرير إنجازاً عربياً علمياً مهماً . ويحسب له – لا عليه – أنه أثار ما أثار من رَدود فعل قوية على الصعيدين العربى والدولى . والأمل أن يلقى هذا التقرير ما يستحقه من عناية فى أوساط العلماء والباحثين فى شئون التنمية ، وفى أوساط السياسيين وصناع القرارات فى وطننا العربى .

على هامش تقرير التنمية الإنسانية العربية:

أسباب تأخر الأمة

د. منير الحمش

صدر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، بالتعاون مع الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي تقرير «التنمية الإنسانية الإقليمي الأول للبلدان العربية للعام ٢٠٠٢» ويغطي هذا التقرير ٢٢ بلداً عربياً ، تمتد من المغرب إلى الخليج.

ويلفت النظر في البداية ، أن التقرير استخدم تعبير «التنمية الإنسانية» بدلاً عن التعبير المستخدم في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، أي تعبير «التنمية البشرية» ويبدو ذلك معقولاً ، إذ استخدم التقرير مؤشرات أخرى، فأصبح يتعدى المفاهيم المعتادة ليشمل إلى جانب الدخل مؤشرات أخرى تصل إلى مفاهيم الحرية والحكم الصالح والحق.

في المساءلة والشفافية ، والمعرفة والمعلوماتية والتعليم ، وإمكانية التعبير مدنياً وسياسياً، وتوافر جهاز الكمبيوتر والقدرة على استخدام الإنترنت ، إلى جانب ما تتعرض له له البيئة من أذى نتيجة النشاط الاقتصادي والاجتماعي.

وإذ يلاحظ التقرير أن الدول العربية حققت تقدماً في التنمية البشرية على مدى العقود الثلاثة الماضية ، خاصة في مجال ارتفاع العمر المتوقع عند الولادة بمعدل ١٥ عاماً ، وانخفاض معدلات وفيات الأطفال ، وتضاعف نسبة البالغين الملمين بالقراءة والكتابة ، وتضاعف نسبة النساء الملمات بالقراءة والكتابة ثلاث مرات ، وارتفاع نصيب الفرد من الماء الصالح للشرب ، كما أصبحت حالات الفقر المدقع أقل مما هي عليه في أي منطقة نامية أخرى.

وبرغم ما حصل من تقدم فى هذه المجالات إلا أنه يدق ناقوس الخطر ،. بسبب العديد من الظواهر السلبية التى تجتاح البلدان العربية مثل:

*عدد الأميين من البالغين العرب ٦٥ مليوناً ثلثاهم من النساء.

* الناتج المحلى الإجمالى لجميع الدول العربية ٥٣١,٢ مليار دولار (١٩٩٩) وهو أقل من دخل دولة أوربية واحدة مثل إسبانيا .رغم ما يقال عن العائدات النفطية ، ورغم مظاهر الإنفاق غير العقلانى لفئات معينة فى البلدان العربية.

* متوسط البطالة ١٥٪ وهى من أعلى النسب فى العالم . ويبلغ عدد العاطلين ٢٠ مليون شخص.

* نمت الصادرات (التى يشكل النفط ٧٠٪ منها) خلال التسعينيات بمعدل ١٥٪ سنوياً . فى حين أن المعدل العالمى كان ٦٪.

* رغم أن مستوى الفقر المدقع فى البلدان العربية هو الأقل فى العالم ،إلا أن مواطناً من كل خمسة ، يعيش على أقل من دولارين فى اليوم.

* يظهر التقرير أنه لا يوجد عربى متمتع بمستوى رفاه إنسانى مرتفع (وهذا المؤشر مركب يضم مؤشرات الحكم، ومقياس التمتع بالحرية ، ومكونات الرفاه المتضمنة فى مقياس التنمية البشرية ويقارنها بالمتوسطات العالمية).

* لا يزيد الاستثمار فى البحث والتطوير على ٠,٥٪ من الناتج القومى الإجمالى ، وهو أقل من ربع المتوسط العالمى.

* تمت ترجمة ٣٣٠ كتاباً سنوياً فى جميع البلدان العربية ، أى خمس ما ترجمته اليونان .وفى الألف سنة الماضية ، ترجم العرب من الكتب ما ترجمته إسبانيا فى سنة واحدة.

إلى غير ذلك من الظواهر والمؤشرات التى تظهر الفجوة الهائلة بين البلدان العربية والبلدان المتقدمة.

الاحتلال الإسرائيلى

وقد أعد التقرير مجموعة من الخبراء والمثقفين العرب برئاسة الدكتور نادر فرجانى وقدمته مساعدة الأمين العام للأمم المتحدة ، ريما خلف هنيدى ،فى مقر الجامعة العربية فى القاهرة فقالت إن التقرير يخلص إلى ضرورة أن تتوفر البلدان العربية ،على تأسيس المجتمعات على ثلاث استحالات:

الاحترام القاطع للحقوق والحريات الإنسانية –الاستحالة الأولى: باعتباره حجر الزاوية فى بناء الحكم الصالح المحقق للتنمية الإنسانية.

الاستحالة الثانية: تمكين المرأة العربية ، عبر إتاحة جميع الفرص خاصة تلك الممكنة من

بناء القدرات البشرية للبنات والنساء على قدم المساواة مع أشقائهن الذكور.

أما الاستحالة الثالثة: فتتصل بتكريس اكتساب المعرفة وتوظيفها بفعالية فى بناء القدرات البشرية وفى جميع صفوف النشاط المجتمعى وصولاً إلى تعظيم الرفاه الإنسانى فى المنطقة.

ويشير التقرير إلى قضايا على جانب من الأهمية: * فهناك محنة البيانات والإحصاءات حيث النقص الحاد فى البيانات.

* وهناك قلة كفاءة الجهاز الحكومى،وضعف الروح العلمية فى اتخاذ القرار.

-وهناك قلة كفاءة الجهاز الحكومى ، وضعف الروح العلمية فى اتخاذ القرار.

-وهناك مجموعة (نواقص) : نقص الحرية و نقص فى تمكين المرأة من ممارسة دورها الطبيعى ونقص القدرات الإنسانية قياسا إلى الدخل ونقص القدرة المعرفية.

والعرب كما يشير التقرير ،هم الأخيرون فى متوسط قيمة مقياس الحرية ،وكذلك فى التمثيل والمساءلة ،وبقياس مظاهر متنوعة للعملية السياسية والحريات المدنية والحقوق التنظيمية واستقلال الإعلام .

وفى كل ما هو جانب حاسم من جوانب حرية الإنسان ،فالبلدان العربية عموماً تحتل المرتبة قبل الأخيرة عالمياً ،وليس بعدها إلا أفريقيا جنوب الصحراء فقط.

وإذ يشير التقرير إلى دور (الاحتلال الإسرائيلى) ويبرز مآسى الاحتلال ،وبرغم إنه يؤكد أنه يمثل إحدى أكبر العقبات أمام مسيرة الأمن والتقدم فى المنطقة «فإنه يقول أيضا» إنه فى أحيان معينة، يمكن أن نستخدم الحاجة إلى تعبئة الشعب ضد المعتدى الخارجى، مبررا لكبح الخروج عن الصف فى وقت يتطلب فيه التحول الديمقراطى قدراً أكبر من التعددية فى المجتمع ، ومزيداً من الحوار العلنى حول سياسات التنمية الوطنية ويخلص إلى نتيجة صريحة وواضحة عندما يقول إن للاحتلال الإسرائيلى نصيبه الوافى من اللوم على ما آل إليه الساحة العربية، لكن هذا لا ينفى المسئولية العربية التى تقتضى الاعتراف والشجاعة على إبرازها وهى فى الحرمان من الحرية » .

ويتناول التقرير لعنة الفقر كما يدعوها الخيارات والفرص وفى تدنى نوعية الحياة. وبناء المجتمعات ،كما يراه التقرير يتطلب نظم سياسية واقتصادات أكثر عدالة ،وتصميماً على محاربة الفقراء.

ويرى التقرير أن الحرمان واللامساواة فى القدرات والفرص أكثر استشراء فى فقر الدخل أو اللامساواة الاقتصادية.

فإذا ما كانت هناك رغبة في استعادة النمو على أساس مستدام : فلابد من معالجة تركة الحرمان.

ويعالج التقرير مسألة أخرى بالغة الأهمية، وهي علاقة الثقافة والقيم السائدة ،وفيما إذا كانا يعززان ، أو يعرقلان ، التنمية ، فإذا ما علمنا أن الثقافة والقيم هما روح التنمية ، لأدركنا أهمية هذه المسألة، وبالتالي أهمية التوفيق بين الثقافة والحداثة العالمية وتعزيز التنمية الإنسانية وهنا يبرز دور الديمقراطية في هذه العملية.

ويؤكد التقرير على أهمية «محاربة الفساد والمحاباة بحزم ، فهذه التشوهات تحبط مبادرات البشر وتحرم الجدارة والإبداع مما يستحقانه من مكافأة وتقدير.

ويرى التقرير أن محور عملية التنمية في البلدان العربية، يجب أن يكون تحرير الناس من الحرمان بجميع أشكاله وتوسيع خياراتهم.

لقد جاء هذا التقرير ، في الوقت المناسب، حيث تمر البلدان العربية بحالة مخاض، لأحداث تاريخية بالغة الأهمية مما يتطلب إطلاق المبادرات والحوارات ، حول الواقع العربي ، بما فيه من ضعف ومهانة ، وحول أسباب ما آل إليه حال الأمة، وحول كيفية الخروج من المأزق.

ولعل الخطوة الأولى ، بعد الكشف عن واقع الحال، وتشخيص مشكلة التأخر العربي ،والواقع العربي المزرى ، اقتصاديا وسياسياً واجتماعياً ، هي معرفة الأسباب . ولطالما طرح هذا الموضوع من قبل العديد من المفكرين والمثقفين العرب ،، خاصة في مفاصل تاريخية هامة من حياة الأمة.

ففي النصف الأول من القرن السابع عشر، حاول مفتي دمشق نجم الدين الغزي (١٥٧٠-١٦٥١) البحث في أسباب الضعف والتأخر الذي أصاب العرب، والذي قاد إلى ما آل إليه حالهم ، حين كتب كتابا بعنوان أسباب تأخر الأمة وحاول بعد ذلك الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي والشميل والشدياق وفرح أنطون وقاسم أمين وغيرهم.

كما عين محمد على والي مصر الطهطاوي(١٨٠١-١٨٧٣) إماما للبعثة التي أرسلها إلى باريز للدراسة في تخصصات مختلفة حيث استطاع الطهطاوي إقناع رئيس البعثة الفرنسي ووالي مصر بإدخاله عضواً في البعثة وليس مجرد إمام لها ،فتخصص في الترجمة والتاريخ والجغرافيا وعلوم الإدارة وبعد أن عاد الطهطاوي بعد خمس سنوات وعلى مدى أربعين سنة كان سؤاله الأساسي : كيف نتقدم؟.

وفي لبنان تساءل شكيب أرسلان (المتوفى عام ١٩٤٦) :لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا

تقدم غيرهم؟.

وقد شهد القرن العشرون ،محطات تاريخية حاسمة فى حياة الأمة: الاستقلال من الحكم العثمانى ، وعد بلفور ،اتفاقية سايكس بيكو ، والانتداب الفرنسى والانجليزى وتقاسم النفوذ وإقامة (دولة إسرائيل) والعدوان الثلاثى على مصر والوحدة السورية –المصرية ثم إجهاضها.. وقد تناول العديد من المفكرين والمثقفين العرب هذه الأحداث ، وأسباب ما تعرضت له الأمة العربية من هزائم وكوارث ونكسات ، إلى آخر ما هناك من تعابير تقود إلى المغالاة فى استخلاص النتائج والتهوين بها، أو النظر إليها وكأنها خاتمة لأحداث مرحلة ، أو بداية لأحداث ومرحلة جديدة . ولم تخل العديد من التحليلات السياسية والفكرية من عمليات جلد الذات أو الإحباط واليأس.

وبعد قيام إسرائيل ١٩٤٨ وتناول قسطنطين زريق أسباب «الكارثة» وبين كيفية الخروج منها، كما عكف زريق بعد ١٩٦٧ على نفس الموضوع فى كتابه« معنى النكبة مجدداً » شدد فيه على أهمية الأخذ بالعلم والعقلانية فى إقامة المجتمع العربى الجديد، بقلب المجتمع العربى من مجتمع انفعالى توهمى ميثولوجى شعرى إلى مجتمع فعلى عقلانى علمى . وأعاد زريق أسباب النكبة إلى الفارق الحضارى بين المجتمع العربى و المجتمع الإسرائيلى ،وهو فى نظره فارق فى « الأخذ بالحضارة الحديثة».

وحاول زكى نجيب محمود فى كتاباته التوفيق بين ثقافة عربية أصيلة والاستعارة من الثقافة الغربية الحديثة ،والتأكيد على العقل والحرية أو التعقيل (أي عقلنة الثقافة) والتحرر (من السلفية العمياء والحداثة المفتعلة والجذور) ،وتساءل محمود :كيف تكون الثقافة العربية معاصرة (بمعنى أن تكون علمية وعربيّة حقيقية فى الوقت ذاته؟).

وعالج العديد من المفكرين العرب الجدد أيضا مسألة تطور الفكر العربى من فكر فلسفى ليبرالى إلى التحليل الاجتماعى الثقافى من منظور نقدى ، فأعاد صادق جلال العظم ما آلت إليه الأمة إلى هيمنة الفكر الدينى التقليدى ، أو إلى البنية العائلية والقبلية التى تهيمن فيها الجماعات القرابية الأبوية الاستبدادية ،كما توصل هشام شرابى فى كتابه مقدمات لدراسة المجتمع العربى إلى أن السلوك العام يرتبط بتركيب المجتمع ارتباطا وثيقا ،واعتبر أنه بالإمكان فهم هذا الترابط عن طريق تحليل بنية العائلة العربية ونوعية العلاقات التى تقوم بين أعضائها . خصوصا علاقة الوالدين بالأطفال ووسائل التنشئة المنيعة فى الأسرة العربية التقليدية . ويعيد هشام شرابى العديد من الانهزامات إلى

التركيب الاجتماعى البطريركى وهيمنة السلطة الأبوية ،ليس فى العائلة فحسب ، إنما فى مختلف المنظمات ومؤسسات التربية والعمل والدولة.

الليبرالي العربى

وقد شهدت مرحلة ما بعد عام ١٩٦٧ ، بداية إنتاج فكرى عزير ، يحاول أن يحلل ويبحث وأن يطلق الفكر من إساره ، وكان من بين أهم الاتجاهات الفكرية الدعوة للتحول إلى مرحلة أيديولوجية جديدة ، عبر عنها المفكر المغاربى عبد الله العروى فى دعوته إلى الليبرالى العربى إلى التحول باتجاه الايديولوجيا القومية العربية (بجذرها الماركسى) ..فالليبرالى العربى عند العروى إنما هو (وريث الشيخ) ولكنه يفترق عنه بأنه (غربى) الهوى ، لهذا فإن العروى يرى أن (حالنا) لم ينحط إلا بسبب استعبادنا الطويل ،فالعبد لا يكون عاملا نشيطاً ، ولا محاربا مقداماً .نعم فى ظل العبودية لا تزدهر زراعة ولا تجارة ولا علم ولا فلسفة، والممالك تنهار لأن العبودية لا تدوم ويرى العروى أن الليبرالى العربى سرعان ما يكتشف أن الدولة العربية بقيت ضعيفة فى مرحلة ما بعد الاستقلال ،وتأسيس المجالس النيابية، وأن خطبه الرنانة ما عادت تعنى شيئاً ،فلم يعد الشعب قوة لا تقهر ، وسرعان ما يجد الليبرالى العربى نفسه مدفوعاً إلى الفراغ من قبل الدولة القومية التى أدارت ظهرها له، وراحت تصغى السمع لوقع خطى التقنوى العربى. ويخلص العروى إلى نتيجة مفادها، أن تمثلات الشيخ والليبرالى وداعية التقنية تنفتح بشكل أو بآخر على الماركسية ، وتستدعى الماركسية كأفق ومنتهى «فهو يدعو إلى تأسيس الماركسية على قاعدة من الليبرالية السياسية.

قبلية الدولة

ويفسر عابد الجابرى ، دعوة الليبرالى العربى إلى العلمانية علمانية المجتمع والدولة بما يدعوه المسكوت عنه ، فإذا ما بحثنا فى هوية هذا الليبرالى فسنجدها فى سوسيولوجيا الأقليات . فالليبرالى العربى ، فى الغالب ، من الرجال المتنورين فى الأقليات الدينية ،والمسيحية العربية منها خاصة ومن وجهة نظر الجابرى أن المسكوت عنه فى خطاب الداعية الليبرالى ، الداعى إلى العلمانية ، هو الاعتراف بحقوق الأقلية واحترام حقوقها السياسية والمدنية ، والتى لا يمكن ممارستها إلا فى ظل الديمقراطية . وينبه الجابرى إلى لعبة الخطاب الليبرالى العربى الذى يوظف شعار العلمانية بدلاً من الديمقراطية ، لأن الديمقراطية تعنى حكم الأغلبية ، وبالتالى تهميش الأقلية التى ينتمى إليها(الليبرالى العربى) أو أن يتحدث باسمها.

وفى حين اهتم خلدون النقيب بظاهرة الدولة التسلطية واعتبر أنها تنطبق على المنطقة العربية بأكملها ، توصل محمد سيد أحمد إلى أن البنية السياسية للنظام العربى تقوم على سلطات يملكها الحاكم ولا تمت بصلة إلى الديمقراطية ، وأن تركيب السلطة فى أى نظام هو تركيب هرمى ، وأن هناك هرما كبيرا يتمثل بالدولة ، وأهرامات صغيرة تتمثل بالمعارضة ومؤسستها. ومن منظور علم الاجتماع السياسى العربى ومقولات البنية الفسيفسائية ومفاهيم التجزئة الاجتماعية ، درس غسان سلامة مسألة قيام الدولة فى المجتمع العربى ، مستعيناً بملاحظة ابن خلدون «أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تتحكم فيها دولة».

ويحاول حليم بركات الاستفادة من مختلف الدراسات والتحليلات المتاحة له، فيشدد على أربع مسائل.. الأولى : الأهمية القصوى للربط بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية فى تفسير الهزائم والإخفاقات العربية.

والثانية : ضرورة التركيز على ظاهرتى الاغتراب وأزمة المجتمع المدنى.

والثالثة: فشل العرب فى معالجة القضية الفلسطينية إلى ما يدعوه مثلث الهيمنة: الهيمنة الخارجية وهيمنة الدولة على المجتمع ، وهيمنة الجماعات الوسيطة من قبلية وعرقية وطائفية ومحلية وجهوية على حساب الأمة والإنسان الفرد ، يضاف إليها جميعا هيمنة الثقافة التقليدية السائدة . وبتفاعل هذه الهيمنات تعطل المجتمع المدنى.

أما المسألة الرابعة فهى أنه أصبح من الضرورى التركيز على تحديد طبيعة الحلول الفعالة بقدر التركيز على أسباب الفشل . فيتم الربط بين العوامل الخارجية والعوامل الداخلية.

وهذه المسألة الأخيرة ، تكتسب أهمية بالغة ،كما أرى، فكما أنه ليس من المصلحة ، ولا العلمية أو الواقعية ، أن تلقى المسئولية على العوامل الخارجية فحسب ، كذلك فإنه ليس من المصلحة ، ولا العلمية أو الواقعية ، أن نحمل مجتمعنا فحسب ، تلك المسئولية فنبرئ الخارج على حساب الداخل ، مما تغيب معه أصول المعالجة السليمة لواقعنا ،كما حاول ذلك البعض من أمثال لطفى الخولى حين قال «المشكلة ليست فى الخارج المستغل ، بل فى الداخل الكسول» ، وهى محاولة تتجاهل تعقيدات الواقع العربى ومطامع الآخرين ومؤامراتهم فى الخارج وانعكاساتها فى الداخل ،كما تتجاهل العلاقات العضوية بين العوامل الداخلية والخارجية ، التى لا يمكن فهمها وتحليلها بمعزل عن بعضها البعض.

ومن أسباب الفشل والإخفاق الذاتية

الداخلية فى المجتمعات العربية عموماً ، فإن البحث يجب أن يوجه أيضا ، إلى دور العوامل الخارجية ، وبالتحديد على دور الغرب والولايات المتحدة ،حيث التقى هذا الدور مع أهداف الحركة الصهيونية . ثم التقت هذه العوامل ، على نحو أو آخر مع مجموعة العوامل الذاتية ، مما نجم عنه (حزمة) من العوامل التى تشكل بمجموعها ، عوامل إعاقة تقدم الأمة .

أسس النهوض

وقبل كل ما سبق أجد من الضرورى الإشارة إلى النقاط التالية:

أن للدول مصالح، وهذه المصالح قد تلتقى مع مصالح دول أخرى ، لكنها قد تتعارض وفى جميع الحالات ، فإننا يجب ألا نتوقع أن تتخلى الدول عن مصالحها التى تراها عادلة، من وجهة نظرها ببساطة (وبدونما مقابل) كما أنها تجد أن ما تتخذه من سياسات تنسجم مع مصالحها ، وأن قدرتها على تنفيذ هذه السياسات يرتبط ، بمقدار ما تملكه من قوة ، وكلما كانت هذه القوة ، فاعلة ، استطاعت أن (تقنع) الآخرين بالقبول أو الرضوخ لمصالحها ، فالعلاقات بين الدول تحكمها المصالح من جهة والقوة من جهة أخرى.

لقد اتسع نطاق فشل الأنظمة العربية ، حتى طال ، إلى جانب إخفاق عملية التنمية القطرية والإخفاق فى بناء قوة عسكرية قطرية أو قومية ، والإخفاق فى التوصل إلى أدنى درجات التنسيق أو التعاون أو العمل العربى المشترك ، ناهيك عن التكامل وأفرز هذا الوضع تدنى أو ضعف الدول العربية فى المحافل الدولية ،مما أدى إلى إضعاف القدرات التفاوضية لهذه الدول فى علاقتها مع العالم الخارجى ، واستهان الجميع بالعرب ، حتى كادوا يخرجوا من معادلات السياسة الإقليمية والدولية الفاعلة.

لا يعنى التركيز على دور العوامل الخارجية ، فى التخلف الراهن أن هناك مؤامرة مبيتة للإيقاع بالعرب ، إنما نبحث فى هذا الموضوع بعيداً عن فكرة المؤامرة وقد يكون هناك شبه مؤامرة ،لكن السؤال هو: وماذا فى المقابل؟ كيف تلقى أصحاب العلاقة المؤامرة أو شبه المؤامرة (لا فرق) كيف تعاملوا معها؟ وعلى أى حال ،فإن هناك سياسات واستراتيجيات تضعها الدول، قد تلتقى أو تتقاطع مع سياسات واستراتيجيات أخرى لدول أخرى ، وقد تتعارض فيما بينها ، إلا أنها فى النهاية تعبر عن مصالحها ، من وجهة نظرها ، وفى جميع الحالات يجب أن تلتقى باللوم على الآخرين ، فى الوقت الذى يجب فيه أن نواجه أنفسنا وبمقدار ما تكون هذه المواجهة صادقة ، بمقدار ما نستطيع القول إننا فى الطريق

الصحيح . ذلك أن الكشف عن العوامل الذاتية للتخلف والضعف ، فى مثل حالتنا ، يعتبر الخطوة الأولى ،والأساسية ، فى عملية النهوض ،فلا ينتظر التوصل إلى علاج ما، دون مكاشفة ، وأن أمة تخفى عيوبها ، ولا تكشف عنها ، لن تكون قادرة على علاج ما بها من أمراض ،ولن يفيدنا إخفاء الفشل ،وتصويره على أنه نجاح ، فى تحقيق التقدم والنهضة ، بل سيؤدى ذلك إلى المزيد من النكبات والانكسارات.

إن التقدم والنهضة ،وما يحمله ذلك من مضامين الحق والخير ومن طموح فى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ،والتكامل الاقتصادى العربى والحرية والوحدة .إن ذلك كله لا يمكن تحقيقه فى غياب المواطن الحر الذى يملك حرية الاختيار ،والمواطن العربى ،وفقاً لمقاييس الحرية السياسية ، لا يملك حق الاختيار ، وبالتالى لا يستطيع أن يمارس هذا الحق.

ليس حال الأمة العربية ، بما فيها من ضعف وهوان ، وانكسارات وهزائم حالة فريدة فى التاريخ القديم، كما هى فى التاريخ المعاصر .فحياة الأمم ، لا يمكن أن توصف ،فى النهاية ، لا من خلال ما عاشته من نهضة وتقدم أو من خلال ما عانته من ضعف وتراجع وتخلف.

فعلى مدى حياة الأمة المديدة ، تشهد أيام رخاء ، وأيام عوز ، أيام قوة وأيام ضعف ، أيام عزة وأيام انكسار. من هذا المنطلق فإن أى تحليل يراد الانطلاق منه نحو المستقبل ، يجب ألا يغرق فى ماض سحيق ، عاشت فيه الأمة أيام عز وسؤدد ، ولا يتيه فى مستنقع واقع مذل . بل يأخذ من هذا وذاك ما يفيد ، وينبذ ما لا يفيد فى تطلعه إلى بناء المستقبل.

وفى هذا السياق ،يجب فهم الواقع ، ليس ، فقط ، من خلال عوامله المحلية ، أو الذاتية ، بل أيضا ، لابد من إدخال آليات التطور والتفاعل على المستوى العالمى والإقليمى .من هنا يمكن فهم واستيعاب التطورات الحاصلة على الساحة الدولية والإقليمية ومدى تأثيرها على الوضع الداخلى، فالإطار الإقليمى والدولى تأثيره على مسيرة وحياة الأمم ، خاصة فى المراحل التى لا يكون لهذه الأمم القدرة على التأثير ،وحتى على تحقيق قدر كاف من الإرادة المستقلة سياسياً واقتصادياً.

بعد هذه الإشارات سوف نستطيع وضع حال الأمة العربية ، على ما فيها من ضعف وهوان وتخلف ، فى إطار العلاقات الدولية والنظام العالمى، الذى حكمت حركته وتطوره ، طبيعة وحركة وتطور الرأسمالية العالمية.

التوسع الرأسمالى

من المعروف أن الرأسمالية ، ذات طبيعة

توسعية ، وكانت قد أدت سياستها التوسعية منذ منتصف القرن التاسع عشر ، إلى نوع من الهستيريا التنافسية فيما بين (قلاعها) فى ذلك الوقت ، من أجل الحصول على المستعمرات ،مما قاد إلى اقتسام العالم بين الدول الاستعمارية ، التى كانت تقول إنها تحمل الحضارة إلى البلدان المستعمرة (بالفتح) وتعمل على نشر قيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان بين الشعوب ، بينما كانت تخفى أغراضها العنصرية الحقيقية ، ونهمها غير المحدود لاستنزاف ثروات وخيرات شعوب العالم التى دعيت بالمتخلفة ، وقد اكتسى التوسع الإمبريالى مفهوم (الداروينية) انطلاقا من القانون الذى يمنح الغلبة (للأقوى والأصلح).

لقد ولد التوسع الإمبريالى ، التنافس بين الدول الرأسمالية الاستعمارية الذى قاد العالم إلى الكوارث والحروب ، وإلى تدمير الطاقات البشرية والموارد الاقتصادية ، والذى تمثل في القرن العشرين فى حربين عالميتين.

وكانت محاولة الاقتصادى الليبرالى الانجليزى (هوبسون) التى جاءت بعنوان: دراسة حول الإمبريالية عام ١٩٠٢ ، أول محاولة جادة لفهم ظاهرة الإمبريالية.

لقد اعتبر هوبسون أن موطن الخلل فى النظام الرأسمالى هو التوزيع غير العادل للثروة، الأمر الذى أدى إلى ظهور مشكلة« نقص الاستهلاك» وهى مشكلة تعتبر قاسماً مشتركاً بين الفقراء والأغنياء على حد سواء.

الفقراء لقلة مواردهم والأغنياء لقلة عددهم.

ويرأى هوبسون أن النظام الرأسمالى ، مضطر إلى التوسع الجغرافى ، لتجاوز مشكلة(نقص الاستهلاك) الذى يزداد تفاقماً فى عصر الإمبريالية والاحتكارات ، وبما أن جميع البلدان الرأسمالية تعانى من نفس المشكلة ، فإنها تدخل فى صراع -لا مفر منه- حول المستعمرات مما يؤدى إلى تفشى «الحمائية» و«العسكرتارية» والحروب.

ولعل أهم كا كتب حول الإمبريالية ،هو ما عرضه لينين فى كتابه «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية عام ١٩١٦ .وقد اختلف فى تفسير ما أراده لينين فى عنوان كتابه عن الإمبريالية ، فهل يريد القول بأن مرحلة الإمبريالية هى آخر المراحل التى تمر بها الرأسمالية ، وأنها ستنتهى بنهايتها؟ أم يريد أن يقول بأنها أعلى المراحل مما يعنى أنها المرحلة العليا فى تطور الرأسمالية وهذا لا يعنى جمودها ، بل حركتها وديناميكيتها؟.

ويرى الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله ، أن لينين لم يقصد جمود الرأسمالية عند هذا الحد من التطور وإذا كان لينين يظن أن انتصار الاشتراكية القريب لن يترك للرأسمالية

العمر الكافى لدخول مرحلة جديدة ، فإن ظنه لا يعدو أن يكون ثمرة تقدير شخصى ، لا يستطيع البرهان الحاسم على صحته ويرى الدكتور عبد الله أن لينين لم يجزم بحتمية انتصار الاشتراكية ،وإنما (رجحه فقط).

فيما يرى البعض الآخر أن لينين قد أفرط فى التفاؤل بقرب انهيار الرأسمالية ،كما أن بعض ما أورده لم يتحقق، فلم تتحول البرجوازيات فى العالم المصنع إلى أصحاب ريوع يعيشون من عائدات رؤوس أموالهم الموظفة فى الخارج.

التبعية والتنمية

إننى أعتقد أن لينين قد استطاع فهم آليات الهيمنة الإمبريالية على المستعمرات وأنصاف المستعمرات، ولكن الثغرة فى تحليله ، أنه ركز على الآليات الاقتصادية والسياسية ، ولم يشر إلى الهيمنة الثقافية ،وهى فى التطور الحالى لا تقل أهمية عن الهيمنة الاقتصادية والسياسية.

وركز (بول باران) الاقتصادى الأمريكى الماركسى المعروف ، على مسألة الفائض الاقتصادى ، فى تحليله لمشكلة (التقدم والتخلف) التى يراها وجهين لعملة واحدة . وشاركه فى هذه النتيجة عدد من الماركسيين الأمريكيين الذين توصلوا لهذه النتيجة قبل غيرهم، بسبب انتمائهم إلى بلد يعتبر تاريخ الرأسمالية فيه، مختلفا عن تاريخ الرأسمالية الأوربية ،كما أن الولايات المتحدة اكتسبت أسبقية فى مجال إرساء أسس الكولونيالية الجديدة أو الإمبريالية غير القائمة على السيطرة السياسية والعسكرية المباشرة.

وقد تأثر منظرو التنمية فى أمريكا اللاتينية بهذه الفكرة عندما درسوا «التبعية» أى تبعية القارات الثلاث (آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية) اقتصاديا وسياسيا وثقافيا للبلدان الرأسمالية الغربية، ولقيت مقولة «التبعية» رواجاً فى صفوف القوى التقدمية فى بلدان العالم الثالث.

وقادت مقولة «التبعية» إلى نظر التخلف .فإذا كانت التبعية تمثل جوهر التخلف .فإن التنمية المطلوبة تعنى عملية التحرر الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والسياسى ،من أجل أن يستعيد المجتمع السيطرة على شروط تجدده .ومن أجل ممارسة الإرادة الوطنية دورها فى خلق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ،مما يعنى ، ليس فقط انعتاق هذه الإرادة وتحررها ، وإنما أيضا إنهاء الاستغلال الذى تتسم به علاقة التبعية .والذى يحول دون استفادة البلد الذى تتسم به علاقة التبعية .والذى يحول دون استفادة البلد من موارده ويمنع قيام هيكل إنتاجى متكامل ، ومتوافق مع هيكل الاستهلاك المحلى وبعد الاستقلال السياسى الذى حصلت عليه الدول النامية ، ومن بينها البلدان العربية

، بعد الحرب العالمية الثانية ، تباعاً . بدا وكأن هذه البلدان، وضعت فى طريق تحقيق إرادة شعوبها ، فى التخلص من التبعية ومن التخلف ومن التجزئة .إلا أن شيئا من هذا لم يتحقق . بل إن من يدقق فى أوضاع الأمة، يجد أن الفجوة بين التقدم والتخلف ، بين الدول المتقدمة وبيننا ، تزداد اتساعا ولم تتحقق التنمية وأحبطت جميع محاولات الوحدة أو التكامل أو التعاون بين الدول العربية وبالطبع ، فإن فهم ذلك يجب أن يوضع فى إطار العلاقات الدولية غير المتكافئة والنظام العالمى.

ففى ظل الحرب الباردة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وقف الغرب إلى جانب «إسرائيل» القومية العربية بموالاة الشيوعية . والوقوف إلى جانب الاتحاد السوفيتى وسقوط نظامه الاشتراكى ، الذى صور على أنه انتصار للرأسمالية وللنظام الرأسمالى ، وبعد انتهاء الحرب الباردة ، أعلنت الولايات المتحدة، بصفتها زعيمة النظام الرأسمالى عن قيام نظام عالمى جديد ، بدأ الترويج له على نطاق واسع ، من خلال مقولات الليبرالية الاقتصادية الجديدة ، وثقافة حرية السوق فى دعوة صريحة للالتحاق بقطار العولمة، التى هى نظام للسيطرة والهيمنة على العالم، من خلال حرية التبادل التجارى وحرية حركة الأموال الطيارة وانفتاح الأسواق حيث بدأ يبرز دور الشركات متعدية الجنسية فى فرض جدول أعمال مغاير على دول العام ، رسمت برامجه من قبل مؤسستى بريتون دودز ومنظمة التجارة العالمية. وإذا كان المطلوب من دول العالم الثالث وشعوبها الانضواء تحت ظل النظام المعولم الجديد بقيادة الولايات المتحدة، فإن الدول العربية وشعوبها أصبحت ملزمة، بهذا الانضواء ، نظراً لما تمتع به من خصوصية تتمثل فى أمرين اثنين:

الأول وجود «إسرائيل» فى قلب الوطن العربى وقد سبق أن عملت دول أوروبا والولايات المتحدة ، على خلق الكيان الصهيونى ودعمته بالمال والسلاح والرجال . ثم أخذت الولايات المتحدة على عاتقها دمج المشروعين الأمريكى والصهيونى فى مشروع واحد يشكل أحد تجليات العولمة فى الإقليم العربى.

والأمر الثانى فهو وجود النفط فى الأرض العربية، هذه المادة السحرية التى تحتاجها الدول الصناعية ، وتعتبر بالنسبة لها عصب الحياة الاقتصادية.

لهذا فقد كانت سياسة الولايات المتحدة تجاه المنطقة العربية، تخضع لهذين العاملين اللذين يحددان الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة انطلاقا من: أمن إسرائيل . ولذا فهى تريدها دولة قوية مهيمنة على دول المنطقة واستمرار تدفق النفط بالكميات والأسعار

المناسبة.

خيارات ممكنة

لهذا فإن ، منع تقدم البلدان العربية، ومنع وحدته ومنعها من الحصول على السلاح وتكوين قوة دفاعية ، ومنعها من تحقيق التنمية ، ومنعها من امتلاك قرارها السياسى والاقتصادى جميع ذلك يحتاج إلى تهميش دور الشعب ، وإضعاف الأنظمة تجاه الخارج وتقوية آلتها البوليسية تجاه الداخل ، وهذا ما عملت من أجله الولايات المتحدة باستمرار واستطاعت تحقيقه إلى أبعد الحدود.

وهنا تلتقى العوامل الداخلية (الذاتية) والعوامل الخارجية . ويحتاج الباحث الموضوعى لمثل هذا الربط العضوى ، خاصة عندما يتوجه إلى تلمس أسباب تأخر الأمة ، وصياغة الخيارات الممكنة لحلول مجدية.

وفى هذا الإطار ، لابد من التوجه إلى الإنسان العربى ، والتدقيق فى حالة الاغتراب التى يعيشها ، وبالتالى الوقوف على أزمة المجتمع المدنى . ففى ظل الأنظمة السلطوية «يعيش الإنسان العربى على هامش الوجود والأحداث ، مستباحاً لمختلف المخاطر والاعتداءات قلقاً ، حذراً ، باستمرار من احتمالات السقوط والفشل والتعرض للمخاطر»، كما يقول د.حليم بركات . وهذا هو هى حال المجتمع العربى ، فهو أيضا يعانى هو حالة الاغتراب عن ذاته، وقد كشفت الانهزامات المتتالية عن عجزه عن مجابهة التحديات التاريخية ، كما كشفت عن هشاشة الحركات السياسية والاجتماعية وفشلها فى تحقيق برامجها الخطابية.

والشعب كما يراه د. بركات مقهور فى علاقاته بالدولة والأحزاب والمؤسسات العائلية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فتسيطر هى على حياته ، ولا يسيطر هو عليها ويعمل فى خدمتها ولا تعمل فى خدمته ، ويجد نفسه مضطراً للتكيف مع واقعه بدلاً من العمل على تغييره ،وللامتثال للسلطات المهيمنة على حياته بدلاً من اتخاذ المبادرات والجرأة على التفرد والإبداع ولهذا يعيش الشعب كابوساً لا حلماً ، إنه محاصر ، ودائرة الحصار تضيق باستمرار . فيضطر يائساً للانشغال بتدبير شؤونه الخاصة وتحسن أوضاعه المعيشية المادية لا الإنسانية.

لقد ضاعت فرص عديدة على البلدان العربية ، كى تحقق التنمية ، ولتبنى مجتمعاً ديمقراطيا ، قائما على العدل والمساواة ، وأن تقيم دولة القانون وتحقق الازدهار والنمو الاقتصادى الذى يضعها فى مصاف الدول المتقدمة . كما أضاعت فرصا أخرى لوضع لبنات فى صرح التكامل الاقتصادى العربى وبناء تكتل اقتصادى قوى ومتين.

وكذلك من أجل تحقيق الوحدة السياسية، أو على الأقل تحقيق التعاون والتنسيق بين هذه البلدان بما يجعلها قادرة على مواجهة العالم الخارجي ،والوقوف إلى جانب التكتلات الاقتصادية الدولية الأخرى على مستوى الندية والمساواة .لقد كانت هناك فرص ضائعة كثيرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فرص كان يمكن من خلالها الانعتاق من حالة التأخر ، ولكن مجموعة العوامل الذاتية والخارجية تضافرت وتضامنت للانقضاض على هذه الفرص وإجهاضها فقد أصبح الوضع أكثر خطورة ،كما أصبح إصلاح الحال أكثر صعوبة. فالعولمة من خلال سيادة آليات حرية السوق ، تزيد من حالة الاستقطاب على الصعيد العالمي فتزيد من غنى الأغنياء وتفاقم فقر الفقراء ، وتتجلى هذه الحالة في اتساع الفجوة بين البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة ، والبلدان النامية المتخلفة وهي فجوة تتمظهر في تفاوت متزايد على صعيد إنتاجية العمل ومستويات المعيشة، بما في ذلك التفاوت التكنولوجي الهائل وأشكال عدم التكافؤ الأخرى.

ونجم الاستقطاب على المستوى العالمي عن آليات النظام الرأسمالي العالمي ، فهو ظاهرة ذات صلة مباشرة بهذا النظام غير المتكافئ ، فدول (المركز) الرأسمالي ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، تتفوق ،على نحو غير مسبوق ، على دول (التخوم) الفقيرة ، بسبب سيطرتها واحتكارها للتكنولوجيا الحديثة. والأموال والأسواق المالية والمؤسسات المالية العملاقةو امتلاك قرار استثمار واستخدام الموارد الطبيعية على الصعيد العالمي والسيطرة على المؤسسات العملاقة في مجال الاعلام والاتصالات واحتكار إنتاج الأسلحة التقليدية وغير التقليدية وأسلحة الدمار الشامل والاستقطاب على الصعيد العالمي ، ينعكس على شكل شرخ غير قبل للالتئام في ظل الظروف غير المتكافئة القائمة ، بين الدول الفقيرة ،كما ينعكس على شكل ممارسات من قبل دول المركز الغنية، تزيد من حالة التهميش التي « تعيشها دول التخوم الفقيرة ،ومن بينها المنطقة العربية (على الرغم من وجود الثروة النفطية في بعض بلدانها.فهذه الثروة، رغم وجودها في الأرض العربية، فإن قرار استثمارها وإنتاجها وتسويقها وإدارة عوائدها المالية ،ليس بيد العرب).

وتزيد حالة تهميش الدول ، من حالة تهميش الشعوب داخل هذه الدول ، حيث تهيمن على القرار الاقتصادي ثقافة السوق ،وآليات الليبرالية الاقتصادية الجديدة ،التي هي جوهر العولمة الاقتصادية ،وما ينجم عنها من استبعاد الفرد واستعباده . واستلاب

إرادته .وهنا تلتقى مصالح عمالقة النظام الرأسمالى العالمى ،مع مصالح الأنظمة ، فتركز الجهود على فرض جدول أعمال تحت مسميات مثل « الإصلاح الاقتصادى» و«التثبيت الهيكلى» من خلال سياسات الاقتصاد الكلى لليبرالية الاقتصادية الجديدة.

ويخلق من خلال ذلك التحالف بين كبار البيروقراطيين الحكوميين ، وفئة من المستفيدين السماسرة ، فتتكون فئة من المثقفين ومن نخب العولمة المرتبطة أساسا فى الخارج بمصالح تلتقى مع مصالح «قلاع العولمة» التى تعمل على شفط الفائض الاقتصادى وإخراجه من البلاد ليدور فى دورة رأس المال العالمى لخدمة أغراض وأهداف النظام الرأسمالى المعولم.

أيديولوجية الفساد

وفى البلدان العربية ،وغيرها من البلدان النامية ، يتم على نطاق واسع تشجيع الفساد ، ولهذا الأمر أصوله (الايديولوجية) ، إذ إن حالة الفساد ليست ظاهرة عادية. صحيح أن الفساد موجود منذ بدء التاريخ ، وموجود فى كل زمان ومكان . لكنه اليوم يتخذ طابعا ممنهجاً ، ويحمل فى طياته فلسفة ، تعبر عن أقبح وجوه الليبرالية الاقتصادية الجديدة وبرامجها فى «الإصلاح الاقتصادى» ..فالبلدان العربية التى كانت تنتهج سياسة اقتصادية موجهة (كان يطلق عليها زوراً وبهتانا سياسة اشتراكية) هذه البلدان تفتقر إلى رأسمال تراكمى ، يستطيع النهوض بأعباء الاستثمار ، الذى (أحجمت) الدولة عن القيام به ، فى ضوء (توصيات) قلاع العولمة وتوجهات السياسات الليبرالية الاقتصادية الجديدة ، وبالتالى لابد من سد فجوة الاستثمار . لهذا فالسبيل إلى سد الفجوة يكون : بإطلاق وحش الفساد ، الذى يستطيع أن يسمح (للبعض) من رجال الأعمال الجدد (وبعض)البيروقراطيين بتراكم الثروة عن طريق العمولات والسمسرة ليتولى هؤلاء القيام بمهمة سد فجوة الاستثمار بأموال الفساد.

لكن ما يحدث فعلاً ،هو أن وحش الفساد الذى انطلق ،خلق حالة من فساد الأخلاق أيضا ، فالقلة المستفيدة ، قامت فعلا بتراكم رأسمالى مهم ، لكنها حولته للخارج (الأكثر أمانا) بينما طوفان الفساد يكاد يغمر المجتمع ، ويصيبه فى أعز قيمه وأخلاقه .. والنتيجة أن الدولة التى أحجمت عن الاستثمار وتراجعت عن سياسات «التدخل الحكومى» فوجئت وارتبكت لأن الطغمة المالية الجديدة ، لم تقدم على سد الفجوة الاستثمارية ، إضافة لاستمرارها فى عملية (نهب) منتظمة للمال العام، وقامت بضخه فى دورة رأس المال العالمى ، ليتعرض لمختلف المخاطر المؤدية إلى تبخس قيمته الحقيقية.

ومع تراجع دور الدولة الاقتصادى ، تراجع أيضا دورها الاجتماعى ويظهر ذلك ، خاصة فى تراجع خدمات الصحة والتعليم .مع إطلاق يد القطاع الخاص فى إقامة المراكز الصحية ، وفى تأسيس الجامعات الخاصة، وفرض رسوم عالية للاستفادة من الخدمات التعليمية والصحية الخاصة.

هكذا يبدو لى، أن مسألة الخروج من مأزق حالة التخلف لن يكون سهلا ، فى ظل السياسات الاقتصادية الكلية لليبرالية الاقتصادية الجديدة ، التى تشكل جوهر عملية العولمة المالية والاقتصادية . وبذات الوقت فإن الأنظمة الشمولية عجزت ،كما عجزت الأنظمة الوراثية ، عن تحقيق النقلة من عالم التخلف إلى عالم التقدم . لكن هذا الفشل ، يقابله ،أيضا فشل المعارضة ،والمجتمع المدنى.

وحتى النظام الديمقراطى (مثل النظام اللبنانى) قد أجهض مشروعه ، وتراجع أمام زحف مصالح متعهدى الطائفية ومع إشاعة أجواء الشك وعدم الثقة ، وتغذيتها خاصة، من قبل (الدعاية) الصهيونية التى تلتقى مع(أهواء) ومصالح الولايات المتحدة الأمريكية ،وإلى حد ما الغرب الأوروبى.

هل نحن فى طريق مسدود؟ ..هل وصلنا إلى حالة من الشلل والعجز التى تمنعنا عن التفكير السليم فى واقعنا ومستقبل أجيالنا؟.

لا أريد ولا أسمح لنفسى ، بتقديم وصفات جاهزة ، إنما ما أردت سوى التذكير ، وتفعيل الحوار ، ودفع المفكرين والمثقفين والسياسيين والمهتمين بمصير الأمة ، إلى الحوار من أجل حل المعضلة التى يعيشها وطننا العربى للخروج من(مأزق) التخلف وتلمس طريق النجاة قبل فوات الأوان.

فكــــرة

التجمع ينجح فى الاختبار

■ عبد الستار حتيتة

خطوتان مهمتان اتخذهما حزب التجمع التقدمى الوحدوى فى مؤتمره العام الطارئ الذى عقد فى شهر ديسمبر الماضى. الأولى تخص الإبقاء على المادة الثامنة من اللائحة الداخلية للحزب، والتى تحظر على القيادات الحزبية البقاء فى موقع المسئولية أكثر من دورتين متتاليتين . والثانية موافقة المؤتمر على تشكيل لجنتين إحداهما منوط بها إدارة الحوار مع أوسع دوائر ممكنة فى صفوف اليسار المصرى والأخرى تتولى إدارة الحوار على المستوى المركزى وفى المحافظات مع الأعضاء الذين توقفوا عن ممارسة النشاط الحزبى فى الفترة السابقة.

وبحث المؤتمر العام عدداً من القضايا المهمة فى شأن اللائحة الداخلية والأوضاع التنظيمية الخاصة بالحزب ، وكذلك ألقى المؤتمر العام الضوء على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى خلفتها سياسات «الانفتاح» التى بدأت منذ منتصف السبعينيات و«الخصخصة» التى شرع الحزب الحاكم فى تطبيقها بدءاً من التسعينيات ، و«حالة الطوارئ» المستمرة منذ عدة عقود ، وحذّر المؤتمر العام من خطورة هذه السياسات التى تؤدى إلى الاعتداء على مكاسب الطبقات الشعبية ، ومحدودى الدخل، وتوقف التنمية وشيوع الركود وضعف معدلات الادخار والاستثمار واستمرار العجز فى الموازنة الأخرى ، وغيرها من مظاهر« الضعف العام» الذى أسفرت عنه سياسات الحكومات المختلفة خلال السنوات الماضية، وحتى الآن .

وأولى المؤتمر العام الجانبين «الاقتصادى» و«الاجتماعى» أهمية لافتة للنظر وبغض النظر عن ارتباط كل منها بالآخر ، وتأثير الأوضاع الاقتصادية على معيشة الغالبية العظمى من المواطنين ، وطالب المؤتمر بإتاحة الفرصة أمام الرافضين والمعارضين من الأحزاب السياسية والنقابات والصحف وغيرها ، للتعبير عن وجهة نظرهم المغايرة للتوجهات الحكومية .

وأكد المؤتمر العام على ضرورة تنظيم أوسع معارضة للسياسات المعادية للغالبية العظمى من المواطنين ، بمن فيهم العمال والفلاحون وصغار الموظفين ، وحتى الرأسمالية الوطنية، وأن يكون تنظيم تلك المعارضة من خلال القنوات الشرعية، في مجلسي الشعب والشورى ، وصحيفة «الأهالي» ، والحركة الحزبية اليومية ، والعمل الجبهوي في المحافظات ، ومع العمال والفلاحين والفئات المضارة من الطبقة الوسطى ، والرأسمالية الوطنية المنتجة.

منذ الساعة الحادية عشرة من صباح يوم التاسع عشر من ديسمبر الماضي ، وإلى الساعة الثالثة عصراً ، دخل أعضاء المؤتمر العام في جدل حاد حول تعديل أو عدم تعديل المادة الثامنة من اللائحة الداخلية للحزب. وانتهى الرأي الأخير ، الذي تم التصويت بالموافقة عليه ، بالانحياز إلى « التغيير» و«الديمقراطية» ، على الرغم من «الحب» الجارف الذي عبر عنه أعضاء المؤتمر لـ «خالد محيي الدين» لدرجة أن جدران قاعة جمال عبد الناصر (موقع المؤتمر) اهتزت أكثر من مرة، من فعل الكلمات الصادقة ، والمشاعر الفياضة..ومن الخيار الصعب الذي وجد أعضاء المؤتمر أنفسهم فيه، وهو : الانحياز للمبادئ الديمقراطية ، مع عدم وجود خالد محيي الدين كرئيس للحزب ، أو الوقوف ضد التغيير ، والإبقاء على «خالد» رئيسا بدون حد أقصى . وبعد ساعات من المناقشات الحامية، بدأت توجهات أعضاء المؤتمر تتعدل ويخرج واحد تلو الآخر للوقوف في صف المطالبين بتعديل المادة ، واستثناء «خالد محيي الدين» من أي تغيير، ولم يحسم هذا الأمر غير «خالد» نفسه، الذي طالب أعضاء المؤتمر بالتصويت على ما سيصوت عليه ، وهو «الإبقاء على المادة الثامنة» والانتصار للديمقراطية وحظر تولي القيادات لموقع المسئولية أكثر من دورتين متتاليتين .

تداول السلطة

وفي الجلسة الثانية للمؤتمر ، بعد ظهر اليوم نفسه، شعر أعضاء المؤتمر العام بأنهم حققوا ،مع خالد محيي الدين ، خطوة غير مسبوقة في الحياة السياسية والحزبية في مصر، بل والمنطقة العربية، وكسب حزب التجمع ، بقياداته وأعضائه ، الرهان ، حيث كان المراقبون يقولون إن الحزب سوف يعدل المادة الثامنة ، وإنه لن يستطيع تغيير قياداته ، أو فتح الباب أمام الوجوه الجديدة.

على هذا الأساس جاءت مناقشات ما بعد الظهر في شأن «الإصلاح السياسي في البلاد» ، صادقة ، وحقيقية ، من أعضاء المؤتمر الذين صوتوا لصالح مبدأ تداول السلطة داخل حزبهم .

وطالب المؤتمر العام ، في هذا الشأن ، بمواصلة خوض معركة الإصلاح السياسي والدستوري والديمقراطي في مصر، طبقاً للبرنامج العام للحزب، ووفقا لبرنامج الإصلاح السياسي الذي أصدرته الأحزاب والقوى السياسية في ١٠ ديسمبر عام ١٩٩٧ ، وكذلك مواصلة العمل لإصدار قانون جديد لمباشرة الحقوق السياسية ، وتغيير نظام انتخاب مجلس الشعب ، وإلغاء قانون الأحزاب وتعديل قانون الجمعيات الأهلية، ووقف العمل بقانون الطوارئ ، وإقرار الحق في تنظيم المسيرات السلمية ، وطرح تغيير نظام اختيار رئيس الجمهورية من الاستفتاء إلى الانتخاب من بين أكثر من مرشح ، وغيرها من مظاهر العمل والممارسة الديمقراطية.

وضع التجمع نفسه ووضعته كل الحياة السياسية في اختبار ديمقراطي ، ونجح في اجتياز الاختبار باقتدار.

فى البداية تكون النهاية

■ د. سمير أمين *

إسرائيل دولة فريدة فى نوعها .. فلم توجد دولة أخرى أنشئت فى ظروف شبيهة ، كما لا تماثلها دولة أخرى منتمية للنظام الدولى فى التنكر الفظ للقواعد التى تحكمه.

نشأت إسرائيل كصنيعة للقوى الإمبريالية الغربية ، بدءاً من بريطانيا وأخيراً الولايات المتحدة الأمريكية . فهى لم تكن من خلق الصهيونية وحدها ، وإنما جاءت أساساً كأداة للمخططات الإمبريالية المتعاقبة ، والهادفة إلى السيطرة على الشرق الأوسط بسبب موقعه الجغرافى - السياسى ، "كطريق إلى الهند " أول الأمر، ثم بوصفه الحد الجنوبى للاتحاد السوفيتى السابق .. وأخيرا بوصفه المنطلق للسيطرة على روسيا والصين وإيران والهند ، فضلاً عن الثروة النفطية . وتحتل فلسطين موقعاً شديد الأهمية فى هذه المخططات لتفصل مصر عن آسيا العربية وبما يسمح بالسيطرة على قناة السويس.

ولهذه الأسباب - وليس لغيرها - اختارت بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى التذرع بالصهيونية كأداة وذلك من خلال إعلان بلفور عام ١٩١٧ . وليس لهذا الإعلان أية مشروعية ، فلم يكن من حق الدول المستعمرة السلطة القانونية أو الأخلاقية فى مصادرة حقوق الشعوب

* هذه شهادة للدكتور سمير أمين ، ألقى بها لتحالف المنظمات غير الحكومية ، فى سياق مبادرة لإنشاء محكمة دولية شعبية للنظر فى جرائم شارون.

الأصلية الموضوعة تحت الحماية ولصالح مستوطنين أجانب سمح لهم بالقدوم . ودعمت السلطات البريطانية بقوة بناء " دولة يهودية داخل فلسطين المستعمرة " ، مستخدمة فى ذلك كل الوسائل المتاحة لها من إرهاب سياسى وبوليسى - عسكرى لتحطيم حركة التحرر الفلسطينية .

وفى مايو ١٩٤٨ اعترفت الأمم المتحدة بإسرائيل كدولة مستقلة ، وفى وقت لم يكن ممثلاً فى المنظومة الدولية سوى عدد قليل من البلدان الإفريقية والآسيوية ، ومع هذا فقد صوت معظمها ضد تقسيم فلسطين.

وكان العرب على صواب من الناحية الأخلاقية فى رفضهم لمبدأ التقسيم ، وكذا أولئك الفلسطينيون الذين بدوا سابقين لعصرهم وناضلوا من أجل دولة فلسطينية موحدة تشمل المستوطنين الجدد وتحترم جميع الجماعات . ولكن الأمر مازال بحاجة للنقاش عما إذا كان رفض التقسيم الخيار الأكثر فعالية من الناحية التكتيكية . فمن المؤكد أن التقسيم قد ساعد المستوطنين الأجانب فى تصوير حربهم العدوانية التوسعية على أنها عمل " دفاعى".

إن انضمام إسرائيل للأمم المتحدة كان يجب أن يتسق والمعايير الدولية ، وبخاصة أن يكون للدول حدود معترف بها . ومن ثم فإن عضوية إسرائيل مرهونة باعتراف من حكومتها بهذه الحدود . ولكن هذا الاعتراف لم يأت قط . ولهذا فمن الواجب من الناحية القانونية طرد إسرائيل من الجماعة الدولية.

ومع ذلك فإن إسرائيل لم تطرد ، بل سمح لها بأن تقلب الأمور رأسا على عقب ، فهى التى لاتعترف بشرعية قرارات الأمم المتحدة ، وهى الدولة الوحيدة التى سمح لها بهذا . فقد دأبت إسرائيل على رفض قرارات الأمم المتحدة لأكثر من نصف قرن، ومع هذا لم تطبق عليها أية عقوبات ، بما فيها مثلاً القصف الكثيف الذى استخدم ضد دول أخرى ، ولأسباب أقل أهمية فى أغلب الأحوال.

وفيما بعد أخذت الإمبريالية الأمريكية على عاتقها " حماية إسرائيل" . وفى عام ١٩٦٥ تم التخطيط فى واشنطون لحرب ١٩٦٧ بهدف تحطيم الجهود الناصرية لتحقيق تنمية مستقلة . ولم تكتف إسرائيل بالرفض الثابت للانسحاب من فلسطين المحتلة وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة ، وإنما أنشأت بطريقة منهجية مستوطنات جديدة فى المناطق المحتلة. ورغم هذه السياسة التوسعية لم تفرض على إسرائيل أية عقوبات دولية ، كما لم تفكر قط أية دولة غربية فى خفض دعمها المالى لهذه الدولة التى يصعب تصور قدرتها على الحياة ولو لأسابيع قليلة بدون هذا الدعم.

هذا وقد أقدمت حركة التحرر الوطنى الفلسطينية - ممثلة فى منظمة التحرير الفلسطينية - على تقديم تنازلات ضخمة من أجل الوصول إلى حل سلمى معقول ،

وذلك حينما اعترفت بوجود إسرائيل كأمر واقع.

لقد قبل الفلسطينيون بأن تتشكل دولة إسرائيل من معظم أراضيهم (وأجودها). ووقعوا اتفاقا فى أوسلو عام ١٩٩٣ ينص على انسحاب الإسرائيليين من الأراضى المحتلة وفقاً لجدول زمني محدد . وهو الاتفاق الذى لم تحترمه أى من الحكومات الإسرائيلية الخمس التى تعاقبت على السلطة منذ توقيع هذا الاتفاق.

ويقال إن باراك رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق قد قدم " عرضاً سخياً " للفلسطينيين أثناء مفاوضات كامب ديفيد . وليس فى هذا أى شئ من الحقيقة حيث يقسم عرض باراك الدولة الفلسطينية إلى أربعة أقسام صغيرة تفصل بينها كتل من المستوطنات الجديدة ، كما يبقى على الاحتلال العسكرى الإسرائيلى بطول نهر الأردن ، ويضم إلى إسرائيل معظم أراضى القدس الشرقية .. وكان العرض تراجعاً مرفوضاً عن اتفاق أوسلو ، وهو لايزال مرفوضاً حتى الآن.

أما آرييل شارون فهو مجرم ثبتت تماماً مسئوليته عن المذبحة التى وقعت للفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا . وطبقا للمبادئ الحاكمة للجماعة الدولية يجب إلقاء القبض عليه ومحاكمته أمام محكمة جنائية دولية . ولكن شارون يتقاسم مع جورج دبليو بوش وجهات النظر فى معظم الأمور ، وهو فى وضع سمح له بالاستفادة من التشوش الناجم عن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لقلب " عملية السلام " التى بدأت فى مدريد وأوسلو ، من خلال إعادة احتلال المناطق الفلسطينية ذات سلطة الحكم الذاتى المحدود باسم ماتسمى " الحرب على الإرهاب " ، كما اضطلع شخصياً بالتخطيط للمذابح التى وقعت فى جنين ورام الله وبيت لحم وغيرها ، مستهدفاً تحقيق " الحل النهائى" الصهيونى ، ألا وهو إخراج الفلسطينيين من فلسطين.

إن شارون هذا لايقوم بأى عمل جديد ، فكما لاحظنا من قبل فإن باراك قد بدأ الانقلاب على " عملية السلام" . بل إن إسرائيل قد تأسست وتوسعت دائماً من خلال مصادرة حقوق الفلسطينيين وانتزاع أراضيهم وطرد ملاكها الأصليين ، ويمثل التطهير العرقى لب السياسات اليومية لهذه الدولة، وهو ما مارسته حكومات حزب العمل بنشاط أكبر حتى من حكومات اليمين. وقد بدأت هذه السياسة مبكراً بمذابح دير ياسين (١٩٤٨) وغيرها ، والتى تبعها الطرد الجماعى لعشرات الآلاف من الفلسطينيين الذين تنكر عليهم إسرائيل حق العودة الذى كفله القانون الدولى . وقعت هذه الأحداث بعد ثلاثة أعوام فقط من انتهاء الحرب العالمية الثانية والتى وقع اليهود الأوربيون خلالها ضحية للبربرية النازية . والنتيجة التى يمكن استخلاصها

من هذه الملاحظة أنه لايوجد مصل يحول دون تحول الضحايا إلى سفاحين بدورهم ، وحيث تواصلت المذابح من دير ياسين إلى جنين.

يتردد كثيرا القول بأن إسرائيل " دولة ديمقراطية "، ولكن مامعنى تلك الديمقراطية التى تقوم على الأبارتهيد والتمييز ضد المواطنين العرب فى إسرائيل .. ليس فقط بحكم الأمر الواقع وإنما بحكم القانون أيضاً ، فضلاً عن تقديم تصور للسلطة الفلسطينية كشرطة معاونة لإجبار الفلسطينيين على قبول وضعية البانتوستانات (انتظاراً لطردهم فى أفضل الأحوال) . إن إسرائيل دولة عنصرية ، دولة أبارتهيد ، ولايمكن تبرير هذا على الإطلاق من زاوية دعم أغلبية السكان ذوى الامتيازات لها ، فكثيراً ما أيدت الأغلبية العديد من النظم الكريهة فى ظل ظروف معينة.

إن المهمة الحقيقية الوحيدة اليوم هى ضمان انسحاب إسرائيل من الأراضى التى تحتلها ، والاعتراف بحق العودة للفلسطينيين المطرودين من ديارهم.

لقد حفلت رطانة بوش وشارون بقلب الأوضاع حينما ركزت على مسألة ماتسميه " العنف" و" الإرهاب" . عنف وإرهاب ضد من ؟ فالاحتلال الإسرائيلى هو الذى يستند فى ممارساته اليومية على العنف والإرهاب .. أما العنف الذى يلجأ إليه الفلسطينيون فهو رد فعل عليه ، ومن ثم فهو عنف مشروع تماماً ، طالما ظل حق مقاومة القهر أحد الحقوق الأساسية للشعوب . وإذا كان جيش الاحتلال الإسرائيلى ينشط خارج حدوده فلماذا لايعمل الفلسطينيون داخل إسرائيل؟ وإذا كانت بعض صور الممارسات الفلسطينية يمكن أن تخضع للمناقشة ومن زاوية فعاليتها بشكل خاص ، إلا أنه لايمكن بأى منطق المساواة بين عنف القاهرين وعنف المقهورين ؟ وإذا طالبنا الطرفين بايقاف العنف دون المطالبة بأسبقية انسحاب الجيش الإسرائيلى ، فان هذا يعنى وبكل بساطة الانحياز لاستراتيجية بوش - شارون.

إن الشعوب الإفريقية والآسيوية لتدرك بسهولة جوهر المشكلة فى فلسطين . إذ إن الاستعمار والمستوطنين البيض والعنصرية والأبارتهيد كانت قاسماً مشتركاً فى تاريخ هذه الشعوب ، كما كانت إسرائيل الصديق الصدوق لنظام الأبارتهيد . لذا أيدت إفريقيا وآسيا نضال الفلسطينيين من أجل التحرر الوطنى . وحينما أدانت مجموعة الـ (٧٧) ودول عدم الانحياز (العالم الثالث) الصهيونية فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، بوصفها مساوية للعنصرية ، فانها بذلك كانت تعبر عن تقييم صحيح للأيديولوجية الحاكمة لدولة " المستوطنين البيض" الاستعمارية.

غير أن هذا لم يكن الحال بالنسبة

لأوربا ، ويبدو أن هناك سببين وراء هذا . إذ تتقاسم مجموعة الـ (٧) أو " الثالوث" (الولايات المتحدة وكندا وأوربا واليابان) رؤية " إمبريالية جماعية " عامة فيما يتعلق بعلاقاتها بشعوب الجنوب . وينطبق هذا على كل الحكومات " اليسارية " - بالمعنى الانتخابى - أو اليمينية . فكل منهما تؤيد ماتعتقد أنه من متطلبات العولمة النيوليبرالية (أى الدفاع عن مصالح رأسمالية الشركات المسيطرة متعدية القوميات) . وتشترك جميع هذه الحكومات فى الاهتمام بمصالح استراتيجية واحدة ، ومن بينها " السيطرة" على الشرق الأوسط ، كما قبلت بزعامة الولايات المتحدة فى هذا الصدد ، ومن ثم فقد اعتبرت إسرائيل حليفاً مفيداً فى هذا المشروع.

ويعتبر هذا الاتجاه السائد وسط المؤسسات الحاكمة فى بلدان مجموعة الـ (٧) ذا أهمية بالغة فى تفسير موقف هذه الحكومات من المسألة الفلسطينية ، وهو عامل أكثر أهمية من الثقل الذى يعزى دائماً للوبى اليهودى (والذى يجب وصفه بالصهيونى لأن العديد من اليهود ليسوا مساندين للصهيونية).

وإذا استطاعت مجموعة الـ (٧) أن تطور روية أخرى لعلاقاتها مع الجنوب فان تأييدها لإسرائيل سوف يختفى بين عشية وضحاها ، مهما بلغ ثقل اللوبى الصهيونى. أما السبب الثانى للتشوش بشأن القضية الفلسطينية فتكمن جذوره فى التاريخ الأوربى ، وخاصة معاداة السامية التى أدت إلى جرائم النازى ، وهى ظاهرة أوربية أفرزت الصهيونية كرد فعل عليها . وأياً كانت الاستجابة الأوروبية تجاه هذا التاريخ، فمما لاشك فيه أن المسئولية الكاملة عن هذا التاريخ يجب أن تتحملها الشعوب الأوربية وحدها . وإذا كان من الضرورى خلق دولة إسرائيل كحل لهذه المسألة ، فقد كان من الأولى أن تقوم فى مكان ما من أوربا ، إذ إن الشعب الفلسطينى لايجوز أن يتحمل تبعات معاداة السامية فى أوربا . غير أن الأوربيين يرون من المناسب أن يكفروا عن أخطائهم على حساب الآخرين . بل والأدهى من ذلك استخدام الصهيونية كأداة فى مخططاتهم الإمبريالية . وهو الاتجاه الذى يجب على الديمقراطيين الأوربيين (وفى أمريكا الشمالية) أن يدركوا أنه لم يعد مقبولاً.

ولقد برهنت الدعاية الصهيونية على كفاءتها فى استغلال هذا الوعى المتردى للأوربيين ، وخاصة " صناعة الهولوكوست " التى حللها نورمان فنكلشتين وفضحها تماماً.

وربما يمكن للمرء أن يضيف إلى السببين السابقين ذلك التعاطف الطبيعى الذى يمكن أن يلقاه الاستعمار الصهيونى من دولة مثل الولايات المتحدة التى بنيت من خلال إبادة السكان الأصليين على أيدى

المستوطنين البيض . ومع ذلك فان هذا التعاطف الطبيعي ماقدر له أن يكون مؤثرا مالم تكن المؤسسة الحاكمة فى الولايات المتحدة تجد مصلحة استراتيجية فى تحالفها مع إسرائيل . فمن المؤكد أن هذه المؤسسة لاترعوى عن اللجوء لأية حجة للدفاع عن مصالحها . يكفى فقط التذكير بموقف أيزنهاور عام ١٩٥٦ حينما وقف ضد إسرائيل بهدف الإجهاز على النفوذين البريطانى والفرنسى فى الشرق الأوسط.

أخيراً .. هل يمكن أن تتغير إسرائيل نفسها ؟ هل ترتضى لنفسها دوراً تاريخياً آخر غير أن تكون رأس رمح للإمبريالية الغربية ؟

إن هذا يمكن أن يكون موضوعاً لجدل تاريخى مهم . أذكر أن اليهود اللاجئين لمصر إبان الحرب العالمية الثانية هرباً من اضطهاد النازى ، كانوا يلقون الترحيب ، انطلاقا من التعاطف مع أناس لفظتهم ظلماً المجتمعات التى نشأوا بها ويرغبون فى القدوم للعيش فى الشرق . لم لا وقد هناك مليون يهودى آنذاك يعيشون فى فلسطين . هكذا بدا الأمر وقتها . ولكنهم للأسف بمجرد أن وصلوا إلى فلسطين خضعوا لتنظيم وتحكم المؤسسة الصهيونية ، حيث تم تعليمهم كيف يتصرفون كمستوطنين بيض ، وهذا بالضبط ماقاموا به.

والآن .. إذا كان الفلسطينيون قد قبلوا بوجود دولة إسرائيل فماذا لو قبل الإسرائيليون بالمثل قيام دولة فلسطينية ؟ وحتى إذا تطلب هذا عملاً دولياً ما ، فهل يمكن لهذا المنعطف الجديد أن يخلق إمكانية لمسار آخر فى العلاقة بين الشعبين؟ أعتقد ذلك.

لكن لن يحدث شئ من هذا بدون انسحاب إسرائيل أولاً من الأراضى الفلسطينية التى احتلتها عام ١٩٦٧ . وهذا هو الهدف الذى يجب أن تحتشد من أجله القوى الديمقراطية فى العالم وفى إسرائيل نفسها.

مقترحات حول تطوير التعليم الثانوى

د. رفعت السعيد

هذه الورقة ، قدمها د.رفعت السعيد، إلى لجنة التعليم بمجلس الشورى ، باسم حزب التجمع ، وفيما يلى نصها :

الأصل فى التعليم الثانوى أنه مرحلة تحضيرية أما لمواصلة التعليم الأكاديمى بالجامعة ، أو للبدء فى الحياة العملية . والملاحظ أننا نتعامل معه بطريقة مختلفة .فالكثير من الدول لاتتعجل بدفع الطالب الثانوى إلى معترك هذا الاختيار الصعب ، ولاتفرض عليه أن يلهث وبسرعة نحوه. فى ألمانيا مثلا طالب الثانوى يتوقف عن الدراسة الثانوية كى يؤدى الخدمة العسكرية ، حيث يصقل ويكتسب معرفة بالحياة ومتطلباتها. ويحسن الاختيار . وفيها أيضا يقطع الطالب الذى ينوى التخصص فى دراسة جامعية تقنية أو ينوى التوجه إلى الحياة العملية ، عاماً دراسياً كاملا فى أحد المصانع وفق التخصص الذى يرغب فيه.. يعمل بيديه ، يتدرب ، يرى ، يتقن ثم .. يتعلم أكاديميا بعد ذلك.

بينما نحن نغرس فى نفوس الطلاب حالة من اللهاث ونزهو بأن الطالب حصل على الثانوية فى سن صغيرة.

المجموع الذى يبدو أنه معيار التفوق ، تحول إلى مزاحمة على كليات القمة .وأصاب الطلاب بحالة من التدافع غير المتصور نحو الحفظ .. فعن طريق الحفظ وحده يمكن للطالب أن يحصل على نسبة ١٠٠٪ وأكثر.

الفهم الانتقادى لايمكنه أن يصل بالطالب إلى هذا المستوى. والحفظ والتلقين آفة رئيسية تغلق أبواب العقل والتفكير حتى فى المواد الأدبية ، فكيف يمكن لطالب ثانوى أن يحصل على الدرجات النهائية فى موضوع التعبير ، وفى علم التاريخ إلا عن طريق إغلاق العقل واللجوء إلى الحفظ .

وهناك الآفة الأخرى المترتبة على ذلك وهى الدروس الخصوصية.

كذلك فإن " المجموع" يفرض على الطالب أن يخضع لاختيارات " التنسيق" وليس لطموحاته . فيتقبل هذه الاختيارات مرغما. ففارق درجة أو درجتين قد ينقله من كلية الطب إلى كلية الزراعة .. هنا يصبح التعليم خاليا من المتعة.. إنه دواء مرير يتجرعه الطالب فقط ليحصل على شهادة.

ومن ثم لابد من وضع معايير جديدة . أعرف أن الأمر صعب ، وأن التنسيق هو معيار العدالة ، لكنه أيضا مؤشر على الحفظ والتلقين والدروس الخصوصية وعشوائية الاختيار .. ولابد من إيجاد حل يكفل العدالة ويكفل معها تلافى هذه العيوب الأربعة .ونتلافى معها قصة الإجابات النموذجية– التى تشارك الوزارة فى وضعها– وغيرها من عوامل إغلاق القدرة على التفكير والبحث المنهجى.

المناهج تحتاج إلى تغيير شامل نوعاً وكماً وصياغةً ، ولابد لها أن تصاغ بأسلوب يمنح الطالب الحق فى المفاضلة بين أكثر من رأى ، ويمكنه من إعمال عقله ، وتقديم رؤيته الخاصة .. ولنقل إبداعه الخاص.

ونحتاج أيضا إلى مناهج واعية كأن تصاغ كتب التاريخ والقراءة وغيرها بأسلوب يمكن الطالب من التفكير وليس الحفظ ، ويمكنه فوق ذلك من التكون عبر وعى وطنى وعبر قيم وأخلاقيات

إيجابية ، وأن تترسخ فى وجدانه قيم الوحدة الوطنية ، والقدوة الإيجابية ، والالتزام بمصلحة الوطن والمجموع ، وذلك كله عبر أساليب مقبولة وليست مفتعلة.

كما أن طرق التدريس الحديثة والمطورة تعتمد على مصادر متعددة للتعليم بالمدارس مثل المكتبات المدرسية والمعامل وتكنولوجيا المعرفة والمعلومات والأنشطة التربوية، ومعامل اللغات والأفلام والكمبيوتر ويصبح الكتاب المدرسى أحد مصادر التعليم وليس المصدر الوحيد .. فيتغير دور التلميذ فى التعامل مع المعرفة من الحفظ فقط إلى كيفية إعداد البحوث والإجابة على التساؤلات ، والحصول على حلول لمشكلات معينة فتنمى لديه إلى جانب التذكر القدرات العقلية الأخرى فى الفهم والتحليل، وحل المشكلات واتخاذ القرارات والقدرة على ممارسة التفكير النقدى الخلاق.

ويتغير دور المعلم من تلقين معلومات الكتاب المدرسى للتلاميذ إلى دور إيجابى فى حلقات المناقشة ونقل التعليم خارج حجرات الدراسة، وتهيئة الموقف التعليمى للتلاميذ ،ودفعهم لممارسة الأنشطة التربوية، وتدريبهم على التعلم الذاتى ،وإكسابهم مهارات استقاء المعلومات عبر المراجع والكتب، ثم تقوم الامتحانات المطورة بتقويم الطلاب تقويماً شاملاً طوال العام من خلال البحوث ودراسة المشكلات والتجارب المعملية ، وبذلك تحل مشكلة الامتحانات فى مدارسنا التى تقيس القدرة على الحفظ فقط.

وهكذا فإن التغيير الجوهرى لطرق التدريس سوف يؤدى إلى تغيير جوهرى أيضاً فى الكتاب المدرسى أو(المناهج) ونظام الامتحانات، ثم تطوير حقيقى للمعلم وبناء العقلية العلمية لدى التلاميذ.

ومع حل المشكلات الأخرى فى منظومة التعليم (أبنية معامل أنشطة كثافة الفصول – .. الخ). سوف نصل إلى حل حقيقى للمشكلة الرئيسية التى يفتقدها التعليم اليوم، ،وهى جودة التعليم وتختفى تدريجيا إحدى النتائج السلبية الخطيرة لهذا النظام وهى الدروس الخصوصية ، التى نشأت ونمت عندما فقدت المدرسة دورها التعليمى والتربوى، ولاتعمل

الوزارة على علاجها بتنمية الدور الـذى فقدتـه المدرسـة ولكنـها واجهتـها بطريقـة عقابيـة وأمنية وهى طريقة لاتحل المشكلة .

التعليم الثانوى الفنى:

إن تقسيم التعليم الثانوى إلى ثانوى عام وفنى هـو إحـدى سـلبيات التعليـم بشـكل عـام ،فقـد أصبح لدينا نوعان للتعليم الثـانوى أحدهمـا يلقـى اهتمـام ورعايـة الدولـة ،وهـو الثـانوى العـام ،والآخر لايلقى نفس الاهتمـام ، بـل ينظـر إليـه كمسـتوى متدنـى للتعليـم بتلاميـذه ومناهجـه ومحتواه ومخرجاته،واستمرت هذه النظرة وعدم الاهتمام حتى أدت إلى أزمة شاملة بالتعليم كله العام والفنى.. فالطلاب، وأولياء أمورهم يرون أن الارتفاع بالمستوى الاجتماعى لخريجـى عمليـة التعليم لايتحقق إلا عبر التخرج فى الجامعةِ أى عبر التعليم الثانوى العام .

ومن هنا كان التكالب على الالتحاق بمدارس الثانوى العـام وأزمـة الثانويـة العامـة ومشـكلة المجاميع الكبيرة ، بينما التعليم الفنى لايسمح لخريجيـه بمواصلـة تعليمـهم العـالى إلا بنسـبة ضعيفة جداً.

وإذا كان التنافس الحضارى تزداد حدته يوما بعد يوم فى عصر العولمة الذى نعيشه حالياً،فلا سبيل أمامنا إلا الارتفـاع بمسـتوى التعليـم والبحـث العلمـى، بحيـث لايقـل مستوى خريجينـا الجامعيين وعلمائنا عن مستوى أقرانهم بالدول الصناعية الكبرى، حتى يمكننا بناء اقتصاد قوى فى هذا العصر الذى لايعترف إلا بالأقوياء، حيث تبنى القوة على العلم وعلى المال الذى يأتى هو الآخر فى معظم الأحيان عن طريق العلم أيضاً.

ومع خالص تقديرنا للجهود التى بذلت والتى ستبذل فى المجالات السـابقة ،فإنـها سـتكون محدودة إذا لم يؤهل طالب الثانوى تأهيلاً يجعله قادراً على استكمال تحصيله الجامعى بكفاءة ، والدخول فى عصر الثورات العلمية الثلاث التى شهدها القرن العشرون والتى سيظهر أثرهـا فـى القرن الواحد والعشرين على هيئة طفرات تكنولوجية تفوق الوصف والتصـور . وبنـاء علـى هـذه الافتراضية فإنه يجب التركيز على المناهج التى سيتلقاها الطالب والتركيز على المسـتوى العلمـى

للمعلم ، حيث يمكن إتمام ذلك من خلال عدد من الخطوات التى تنصب بصفة أساسية على مناهج العلوم الطبيعية (كيمياء فيزياء رياضة) ويضاف إليها العلوم البيولوجية سواء كان هؤلاء التلاميذ من دارسى التخصصين العلمى أو الأدبى.

وفيما يلى بعض الاقتراحات الكفيلة بتحقيق ذلك :

أولا- المناهج :

- أن تكون المناهج ولاسيما فى العلوم الطبيعية والبيولوجية متماثلة مع تلك التى تدرس فى دول أوروبا . حتى لو تم ذلك عن طريق المناظرة للمناهج وطرق تدريسها ، وهذا لايقلل من شأننا فى أى شئ ،فإذا كنا نستورد العديد من التكنولوجيات المتقدمة من الخارج، فلا ضير فى أن نطالع ونستفيد من المناهج التى تؤدى إلى إحداث تلك التكنولوجيات من الخارج أيضا.
- أن تتدرج المناهج التى يدرسها الطالب فى كل من العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، رياضة) والعلوم البيولوجية ،بحيث تشتمل على التطور الذى حدث أثناء ثورتى البخار والكهرباء التكنولوجيتين ووصولاً إلى عصر الاكتشافات الذرية والالكترونية فى القرن العشرين .
- دراسة نظرية الكم والتفسيرات العلمية المقترنة بها عند تطبيقها فى فروع الكيمياء والعلوم البيولوجية ، حيث يتطلب ذلك الارتفاع بالمستوى العلمى للتلاميذ فى الرياضيات والفيزياء حتى يمكن فهم تلك النظرية وتطبيقاتها المختلفة . حيث إنها هى التى أدت إلى الدخول فى ثورتى الكمبيوتر والبيوتكنولوجية عن طريق اكتشاف التركيب الجزيئى الفراغى للمواد الجديدة التى ساهمت هى وعلوم الليزر فى إحداث ثورة الكمبيوتر الهائلة.
- أن يتعلم التلاميذ كيفية الدخول إلى عصر المعلوماتية عبر استعمال الكمبيوتر والإنترنيت ،حيث إن مستواهم العلمى والتقنى فى هذا المجال سيكون رافعة مهمة،

إذ إن ذلك المستوى يتناسب طرديا مع مستوى العلوم الرياضية لدى مستخدم الكمبيوتر في أي من مجالاته التي لاحصر لها .

ثانيا – المعلم :

- يجب الاهتمام بخريجي كليات التربية بحيث يكونون مؤهلين لتدريس المواد السابقة الذكر ،حيث يلزم زيادة مقررات الفيزياء والكيمياء والرياضة بما يساوى سنتين دراسيتين على الأقل ، مما يعنى زيادة سنوات الدراسة بهذه الكلية سنة واحدة على الأقل .

ثالثا – الأستاذ الجامعى الذى يؤهل المعلم لتدريس تلك المواد :

- فى واقع الأمر فإن أعضاء هيئة التدريس الجامعى الذين يقومون بإعداد المعلم فى العلوم سابقة الذكر يكونون من خريجي كليات العلوم وفي بعض الأحيان بمستوى غير كاف . بينما يجب أن يكون مستواهم موازيا تماما لمستوى أقرانهم فى جامعات دول أوروبا المتقدمة وأمريكا واليابان، حتى يمكن أن يتخرج على أيديهم خريجون مماثلون لهم .

رابعا – مدارس التعليم الثانوى:

- يجب أن تشتمل كل مدرسة عصرية على مختبرات الفيزياء والكيمياء والرياضة التطبيقية وعلوم الحياة (نبات ، حيوان) وقاعات الكمبيوتر .
- يجب أن تكون المساحة المخصصة لكل تلميذ وأستاذ كافية لأن يؤدى كل منهم مهمته على الوجه الأكمل، وأن تزيد عن الحجم الحرج الكافى لحرية التصرف والعمل ..
- أن يمارس كل التلاميذ مختلف أنواع الأنشطة الفنية والأدبية المتعارف عليها والمحببة لكل منهم حيث إنها ترفع من مقدرتهم التخيلية، التى تساهم بشكل ملحوظ فى قدرة التلاميذ الابتكارية جنبا إلى جنب مع المهارة العقلية المكتسبة كنتيجة منطقية للارتقاء بمستوى تدريس العلوم الطبيعية المذكورة سابقا.

فـــكــــــرة

المبادرة الأمريكية

حول «الديمقراطية» !

فى ١٢ ديسمبر الماضى، أعلن وزير الخارجية الأمريكى كولن باول ما سمى بـ« مبادرة الشراكة الأمريكية فى الشرق الأوسط». وتردد أن الدافع وراء «المبادرة» هو الرد على القائلين بأن الولايات المتحدة تساند الأنظمة الديكتاتورية فى المنطقة لأن هذه الأنظمة موالية لواشنطن.

ومن الواضح أن المبادرة الأمريكية هى وسيلة جاهزة للاستخدام فى حالة رغبة الولايات المتحدة فى تغيير أنظمة حكم عربية.

وجاء فى خطاب كولن باول «إن الولايات المتحدة سوف تساند العملية الديمقراطية حتى إذا أسفرت عن سياسات لا تتفق معنا» ، وهو أمر مشكوك فيه.

ومن الواضح أيضا أن الولايات المتحدة تريد التدخل فى الشئون التربوية والاجتماعية والاقتصادية عبر تشجيع مناهج تعليمية تنشر الافكار الغربية وكذلك تشجيع اقتصاد السوق.

ومن المؤكد أن الولايات المتحدة أصبحت تعتبر الأوضاع الداخلية للدول العربية من شئونها المباشرة ، ومن مقتضيات أمنها القومى.

كذلك أصبح شعار« الديمقراطية» أداة لتحقيق الهيمنة الخارجية على السياسات العامة لهذه الدولة أو تلك كما أصبح التوجه الأمريكى هو السيطرة على المنطقة ، وبأن تكون واشنطن هى صاحبة الكلمة العليا فى تقرير وتحديد قضايا أبعد من مجرد السياسات الاقليمية والخارجية للدول العربية.

ولا تقيد الولايات المتحدة نفسها بأسلوب واحد

محدد في التعامل مع الدول العربية. فهناك حالات تستوجب العدوان العسكرى المباشر. وهناك حالات أخرى–مثل مصر–، تتطلب التسلل والتوغل فى الحياة المصرية– سواء المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية –بحيث تجرى عملية تقويض نظام الحكم «برفق» ، وبطريقة متدرجة لضمان منع الانتكاسات والانفجارات . وتحت ستار «التغيير الديمقراطى» (وهو تغيير وهمى فى حقيقة الأمر أو يقتصر على عملية تجميل أو تحديث فى أحسن الأحوال) تفقد الدولة العربية المستهدفة استقلالها الوطنى.

ولا حاجة إلى التذكير بقطاع من العرب الذين تعاونوا مع الأنجليز والفرنسيين ضد العثمانيين ولم يحصلوا ، فى نهاية المطاف، سوى «سايكس بيكو» و«وعد بلفور»!.

وقد يؤدى تأييد الغزو الأمريكى للعراق إلى إعفاء حكومات عربية ديكتاتورية من الضغط الأمريكى عليها عند اللزوم ، أو تصبح قضية التغيير فى داخلها مؤجلة إلى حين.

والدليل على سوء النوايا الأمريكية أنها تتعامل مع عناصر عميلة ومأجورة من العراق بوصفها تمثل «المعارضة العراقية» .كما أن السلوك الأمريكى فى الأمم المتحدة يثبت رفض الولايات المتحدة لقبول ديمقراطية العلاقات الدولية. ومعلوم أن القيم الديمقراطية تتناقض كل التناقض مع منطق القوة العسكرية الذى أصبح الأداة الوحيدة للتعامل الأمريكى مع العالم الخارجى. ولا يوجد ما يشير إلى أن الولايات المتحدة التى تقيم امبراطورية جديدة فى العالم ، على استعداد للتضحية بمصالحها المتعددة والمتشعبة من أجل الدفاع عن ديمقراطية حقيقية.

بقى أن التحليل الأمريكى لأوضاع الشرق الأوسط يفترض أن سخط الشعوب العربية على الأنظمة الحاكمة يرجع إلى مساندة واشنطن لهذه الأنظمة . وهنا نلاحظ أن الولايات المتحدة تتجاهل تماما أحد الأسباب الرئيسية لهذا السخط ، وهو الانحياز الأمريكى المطلق للحرب الاسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى ، وهو انحياز يتزايد وقاحة وإجراما كل يوم ، مما يؤكد أن أمريكا تناصب العداء لقضية تحرير الأراضى العربية من الاحتلال والحقوق الديمقراطية للشعب الفلسطينى وعلى رأسها حقه فى تقرير المصير.

ومن الدروس القيمة لحركة التحرر الوطنى فى مصر والعالم العربى .. أن قضية النضال الوطنى لا تنفصل عن النضال من أجل الديمقراطية . ولذلك لا يمكن تصور تحقيق أحدهما على حساب الآخر.

وأمريكا أول من يعلم أن تطبيق نظام ديمقراطى حقيقى فى أى دولة عربية يعنى أن يتولى المسئولية فى تلك الدولة ممثلو الشعب الذين يتصدر برنامجهم السياسى الرفض الكامل للهيمنة والوصاية الأمريكية حرص على السيادة الوطنية وعلى مصالح الأغلبية التى أدلت بصوتها لهؤلاء الممثلين.

في مؤتمره الوطني السادس عشر:

الحزب الشيوعي الصيني ونظرية التمثيل الثلاثى

■ محمد عبداللاه

من خلال تصفيق حاد أبدى أكثر من ٢١٠٠ مندوب إلـــى المؤتمر العام السادس عشر للحزب الشيوعي الصيني، تقديرهم واحترامهم للزعيم "جيانج تسه مين" البالغ من العمر ٧٦ عاما ، ولزملائه في المكتب السياسي للحزب لما تحلوا به من اتســاع رؤيتهم السياسية ولأصالتهم الوطنية. هكذا قالت وكالة الأنبـاء الصينية "شينخوا" عن ختام أعمال المؤتمـر الوطنـي للحـزب المنعقد في النصف الأول من شهر نوفمبر الماضي.

وكان سبب التصفيق الحاد للزعيم "جيانج" وخمسة من رفاقه الكبار أنــهم لــم يتقدمــوا للترشيح لعضوية اللجنة المركزية للحزب، وذلك في خطوة فتحت الطريــق أمــام عنــاصر جديدة لشغل مقاعد القيادة. وبعد توزيع أوراق الاقتراع، وملء بياناتها، والإدلاء بالأصوات، وفرزها، وهي عملية استغرقت حوالى ساعتين، تم إعلان النتيجة التى أسفرت عن تشــكيل لجنة مركزية جديدة ليس فيها كل من: "جيانج تسه مين" و"لى بنج ــ ٧٤ عامــا" و "تشــو رونج جى رئيس مجلس الدولة (الحكومة) ــ ٧٤ عاما" و"لى روى هــوان ــ ٦٨ عامــا" و"وى جيان شينج ــ ٧١ عاما" و"لى لان تشينج ــ ٧٠ عاما".

وكان العضو الوحيد في اللجنة الدائمة للمكتــب السياســى للجنــة المركزيــة للحــزب الشيوعى الصينى الذى دخل اللجنة المركزية الجديدة هو "هو جين تاو ــ ٥٩ عاما" الذي تم

انتخابه سكرتيرا عاما للحزب ، فيما يعد خطوة مؤكدة نحو تقلده زعامة الحزب وزعامة الصين بعد "جيانج تسه مين".

وكان المؤتمر الوطنى للحزب الشيوعي الصيني قد بدأ أعماله يوم الجمعة ٨ نوفمبر الماضي ، واختتمها بهذا التغيير المهم في أسلوب تصعيد القيادات يوم الخميس ١٤ نوفمبر، وتم في جلسة الختام انتخاب اللجنة المركزية الجديدة للحزب من ٣٥٦ عضوا منهم ١٨٠ من الوجوه الجديدة، واكثر من ٢٠ بالمائة منهم تحت سن الخمسين.

وهكذا تكون قيادة الجيل الثالث في الحزب الشيوعى الصينى ـ وفي القلب منها "جيانج تسه مين" ـ قد تركت بصمتها في تاريخ الحزب العريق (٨١ سنة من العمل السياسي والعسكري السري والعلني). وقد مثل الجيل الأول من قيادة الحزب الزعيم الراحل ماو تسي تونج، ومثل الجيل الثاني "دنج شياو بنج" قائد ثورة الإصلاح الاقتصادي ومؤسس نهضة الصين الحديثة.

الله والصين

لكن كيف كانت صورة الصين في الغرب في وقت انعقاد المؤتمر الوطني السادس عشر للحزب الشيوعي الصيني؟

لم تكن طيبة بأي حال. ففي مقال نشرته صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية بعنوان "الله والصين" جاء ما يلي: [تعد الصين ـ بطرق كثيرة ـ أكثر حرية اليوم مما كانت عليه في السابق، ومن السهل أن ينبهر زائرها بالتليفونات المحمولة المنتشرة في أيدي الناس، وبناطحات السحاب هنا وهناك، ولكن إلى جانب ذلك مازالت معالم الدولة البوليسية القديمة بادية. فالشرطة، خاصة في المناطق النائية، تستطيع أن تلقي القبض على الأشخاص وتعذيبهم وتقتلهم بدون أن ينال رجالها أي عقاب، حتى لو كان الضحايا لا يفعلون شيئا سوى عبادة الله].

وتضيف الصحيفة أن ٦٠ ألف صيني لقوا مصرعهم بين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠١ برصاص الشرطة ، سواء في عمليات تنفيذ إعدام أو عمليات قتل لدى هروب الضحايا (قرابة ١٥ ألف شخص في السنة) وهو ما جعل ٩٧% من عمليات الإعدام في العالم في تلك الفترة تتم في الصين وحدها. وتشير الوثائق ـ حسب قول الصحيفة ـ إلى أن

العشرات من المسيحيين الصينيين وأبناء طائفة "فالون جونج" ماتوا من التعذيب في أقسام الشرطة].

وفي مقال آخر تقول "النيويورك تايمز" إن مشكلات الصحة العامة في الصين تجعلها صاحبة واحد من أعلى معدلات الانتحار في العالم، خاصة بين النساء، بل إن الصين هي الدولة الوحيدة التي يزيد فيها عدد المنتحرين من النساء على عدد المنتحرين من الرجال، وهي واحدة من بين عدد قليل من الدول يزيد فيها عدد المنتحرين في الريف على عدد المنتحرين في المدن.

أما سبب الانتحار فهو الضغوط النفسية الناجمة عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية المتسارعة في الصين، ويساعد على الانتحار توافر المبيدات الحشرية وسم الفئران في الريف.

لكن هل صحيح أن صورة الصين رديئة بالطريقة التي نشرتها بها هذه الصحيفة الأمريكية الكبرى؟ مع العلم بأن "النيويورك تايمز" طالبت مع ما نشرته بأن تضغط الولايات المتحدة على الحكومة في بكين لوقف القمع البوليسي ومراعاة اعتبارات حقوق الإنسان.

٢٥٠ مليار دولار

الحقيقة أن صورة الصين ليست قاتمة، بل إن العكس هو الصحيح، خاصة إذا كان معيار الحكم على الأمر هو قدرة الحكومة على رفع مستوى المعيشة وتلبية احتياجات المواطنين (١,٣ مليار نسمة) وكذلك إذا كانت عمليات الإعدام تتم في أغلبها عقابا على انحرافات مالية وأخلاقية وخيانة وطنية.

ولماذا لا نقول إن تقدم الصين اقتصاديا يثير قلقا في الدوائر الغربية، خاصة الولايات المتحدة؟ فصندوق النقد الدولي يتوقع فى آخر تقرير صادر عنه حول الصين أن يبلغ معدل نمو الاقتصاد الصيني ٧,٥% هذا العام(٢٠٠٢)، وذلك فى الوقت الذي تواصل فيه الصين تعزيز اقتصاد السوق والانفتاح على العالم الخارجى ، وتحقق تقدما فى قطاعات التمويل والبنوك والقطاعات الأساسية الأخرى من الاقتصاد. وفي نهاية شهر يونيو الماضي بلغ احتياطى النقد الأجنبى في الصين ٢٥٠ مليار دولار أمريكى، أى اكثر من أربعة أمثال الديون الخارجية القصيرة الأجل المستحقة على الصين.

وإلى جانب ذلك فقد أصبحت الصين أكثر دول العالم جذبا للاستثمارات الأجنبية المباشرة، متجاوزة بذلك الولايات المتحدة لأول مرة، وفقا لما كشفته أحدث دراسة أعلنتها شركة "أيه.تى. كيرنى" الاستشارية المشهورة عالميا. وتشير الدراسة إلى أنه بينما تتراجع قوة أغلب الدول على جذب الاستثمارات فإن قوة الصين في هذا المجال تواصل نموها. ومن المتوقع بحلول عام ٢٠٠٥ أن يكون نصف من يزيد دخلهم السنوى على ١٠ آلاف دولار أمريكى فى العالم صينيين، وتعد القوة الشرائية الكبيرة فى الصين عاملا آخر لتدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة إليها.

وزيادة على ذلك فإن الصين ليست مجرد متلقية للاستثمارات الأجنبية المباشرة، بل إنها مستثمرة أيضا في الخارج، وفى العام قبل الماضى استثمرت ١٢ من أكبر الشركات الصينية المملوكة للدولة ٣٠ مليار دولار فى الخارج، وهذا القدر يعادل إجمالى استثمارات جميع دول أمريكا اللاتينية الخارجية.

فهل يمكن ترجيح كفة عمليات إعدام الفاسدين ماليا والمنحرفين أخلاقيا والخائنين وطنيا على كفة هذه الإنجازات الكبرى، كما تحاول صحيفة "النيويورك تايمز" أن تقنع قراءها؟ إن من المؤكد أن أي انتهاك لحقوق الإنسان مرفوض، ولكن من المؤكد أيضا أن ترك الحبل على الغارب للفاسدين، والمشوهين والمنحرفين أخلاقيا، والخائنين وطنيا، يمثل معاول هدم للأوطان، وتدميراً لحياة مئات الملايين من البشر مثلما حدث في الكتلة الشرقية السابقة.

ولذلك لم يكن غريبا أن يركز المندوبون المشاركون فى المؤتمر الوطنى الـ ١٦ للحزب الشيوعي الصيني على تشديد الحملة ضد الفساد، وأن يتفقوا على أن مكافحة الفساد تعد مهمة بعيدة المدى وشاقة، وأكدوا على ضرورة معالجة أسباب الفساد وإزالة آثاره فى آن واحد.

أورام الفساد

وفي ذلك يقول المندوب "بيان تسوى بينج" إن "مكافحة الفساد تعد نضالا سياسيا جادا ومسألة حياة أو موت بالنسبة للحزب والدولة" مشيرا إلى أن تقرير الرئيس جيانج تسه مين أمام المؤتمر الوطنى يوضح تصميم الحزب على معاقبة أعضاء الحزب الفاسدين.

ويقول "تشن بى تشونج" المندوب من مقاطعة يوننان، إن تحسين النظام يعد أسلوبا جيدا لمنع الفساد والتعامل معه في منبعه. ويضيف أن زملاءه أعربوا عن إيمانهم بأنه على مدى

السنوات الثلاث عشر الماضية، أستطاع الحزب التوصل إلى طريق لمكافحة الفساد بصورة فعالة، من خلال جهوده الخاصة ومن خلال المشاركة الشعبية، وأشار إلى أن مكافحة الفساد تتم وسط توسع اقتصادى سريع فى ظل ظروف اقتصاد سوق اشتراكى. وقال "وو تيان شيانج" المندوب من مقاطعة هوبى: "إن مسألة ما إذا كان الحزب يملك الشجاعة الكافية لاستئصال أورام الفساد من جسمه وتشديد حملة مكافحة الفساد، ستكون اختبارا رئيسيا يؤثر على بقاء الحزب وتطوره".

وقال المندوب "تشين سونج لين" من مقاطعة إنهوى إن أى حزب حاكم سيواجه عواقب وخيمة إذا لم يستطع التحكم جيدا فى كبار مسئوليه. وقال "تنج جيو مينج" من بلدية تشونجتشينج إنه فى وجود التحول من الاقتصاد المخطط إلى اقتصاد السوق ، فإن تضارب المصالح بين الفئات الاجتماعية المختلفة يزيد من صعوبة الحرب ضد الفساد. وأضاف قائلا: "يجب أن يكون لدينا تفهم تام لضرورة مكافحة الفساد، لكننا يجب علينا من ناحية أخرى إدراك أن هذه مهمة بعيدة المدى تتطلب عزما لا يلين".

وأكد "ويه جيان شينج" على ضرورة بذل جهود مستمرة لتحسين نمط عمل الحزب الشيوعى الصينى ومحاربة الفساد. وقال خلال المناقشة التى أجراها بشكل مشترك مندوبون من مقاطعة شينجيانج حول تقرير جيانج تسه مين إلى مؤتمر الحزب، إن التقرير يعد دليلا لبناء مجتمع الرخاء فى الصين ودعم عملية التحديث الاشتراكى، وله أهمية عميقة فى تحقيق إحياء الأمة الصينية من خلال الطريق العلمى.

وأضاف قائلا: "إن ممارسة مكافحة الفساد على مدى الثلاثة عشر عاما الماضية توضح بجلاء أن القيادة الجماعية للجيل الثالث، وفى القلب منه جيانج تسه مين، لديها تفهم كبير لموضوع مكافحة الفساد" مشيرا إلى أن مكافحة الفساد حافظت على قوة الدفع على طريق الإصلاح والتنمية الاقتصادية. وقال ويه "إن اللجنة المركزية للحزب، واصلت موقفها الصارم من محاربة الفساد، وكان من المحتم أن يلقى أى عضو فاسد مهما كان منصبه عقوبة قاسية بمجرد كشف وثبوت سلوكه الفاسد".

وأشار ويه إلى أن مراجعة عملية مكافحة الفساد على مدى الثلاثة عشر عاما الماضية تشير إلى أن أيديولوجية وممارسة الحزب فى مكافحة الفساد تتفق مع الظروف الوطنية فى

المرحلة الراهنة، وأن غالبية مسئولى الحزب بعيدة عن الفساد وأكد ذلك قـائلاً "إن حزبنـا قادر تماما على حل مشكلة الفساد".

وقال ويه "يجب علينا أن ندرك تماما أن موضوع مكافحة الفساد ما زال صعبا" مشـيرا إلى أن الفساد يمكن أن يحدث خلال عملية الإصلاح وإعادة الهيكلة. وأكد ضرورة تحسـين نمط أداء الحزب ومعاقبة الأعضاء الفاسدين، وأنه يجب ضرب أسباب الفساد بشكل قـاصم. وأضاف قائلا: "لا بد أن نعتمد أيضا على الإجراءات الوقائية مثل دعم التوعيـة، وتطويـر الديمقراطية، وتحسين النظام القانونى، وتشديد الإشراف فى عملية مكافحة الفساد".

وقد كانت النظرة إلى وضع الصين في المؤتمر متسعة باتساع الصين وعميقـة بعمـق واقعها الراهن، وفي ذلك قال "لى تسى بين" نائب مدير مكتب المجموعـة الرائـدة التابعـة لمجلس الدولة لتنمية المناطق الغربية إن إجمالى الناتج المحلى للمناطق الغربية فى الصيـن الذى حقق نموا ٨,٥ و ٨,٧ فى المائة فى عامى ٢٠٠٠ و ٢٠٠١ على التوالـى حقـق معدل نمو نسبته ٩,٦ فى المائة فى الأرباع الثلاثة الأولى من هذا العام (٢٠٠٢)، وهـو أعلى من المتوسط الوطنى.

وقال لى، وهو أيضا نائب الوزير المسئول عن لجنة الدولة لتخطيط التنمية فى مؤتمـر صحفى على هامش أعمال المؤتمر، إن استراتيجية الصين الخاصة بتنمية منطقتها الغربيـة الشاسعة حققت تقدما ونتائج كبيرة. وقال إنه بفضل الخطوط العامة الصحيحة والإجـراءات الفعالة التى تبنتها الحكومة المركزية، تمتعت المناطق الغربية فى السنوات الثلاث الماضيـة بنمو سريع فى الاقتصاد وتدفق الاستثمارات.

وفي الوقت نفسه تناسبت أعمال المؤتمر مع مرحلة التطور الراهنة في الصين، وكـان من ذلك مشروع التعديل الدستوري الذي تقدم به جيانج تسه مين إلى المؤتمر وتم إقـراره، ويتناول نظرية "التمثيل الثلاثي" في الحزب الشيوعي الصيني، بمعنى أن يفتح الحزب أبوابه أمام ممثلي النشاط الرأسمالي الجديد، وأن يفتح أبوابه أيضا أمام ممثلي التيارات الفكريـة الجديدة إلى جانب ممثلي التيار الشعبي العام وأغلبيته العمالية والفلاحية. وقال جيانج فـى تقريره إن "التمثيلات الثلاثة" والتي تعنى ضرورة أن يمثل الحزب من الآن فصاعدا اتجـاه تنمية القوى المنتجة المتقدمة الصينية، واتجاه التقدم فـي الثقافـة الصينيـة، والمصـالح

الأساسية للغالبية الساحقة من أبناء الشعب الصينى تلخص الحكمة الجماعية للحزب، وتعـد أيديولوجية مرشدة يتعين أن يلتزم بها الحزب لسنوات طوال فى المستقبل.

وحول هذا التعديل قال "لى جيان فوه" مندوب من مقاطعة شنشى بشمال غرب الصيـن، إن الجيل الثالث من قيادة الحزب، وفى بؤرتها جيانج تسه مين، لم تتوقـف مطلقـا عـن الإبداع العملى والنظرى منذ أدرج الحزب نظرية دنج شياو بينج فى دستوره قبـل خمـس سنوات. وقال: "إن الفكر المهم للتمثيلات الثلاثة تم طرحه على أساس حكـم علمـى علـى الوضع التاريخى للحزب، ويعد سلاحا نظريا قويا لتعزيز وتحسـين بنـاء الحـزب ،ودفـع الاكتمال الذاتى وتطوير الاشتراكية فى الصين".

ماو ودنج

وقال لى تشان شو، وهو مندوب من شنشى، إن "التمثيلات الثلاثـة" وهـى اسـتمرار وتطوير لفكر ماو تسي تونج ونظرية دنج شياو بينج، تظهر أن الحزب عزز تحسين أساسه النظرى، واصبح أكثر نضجا سياسيا وأصلب عقيدة.

وقال "تشانج تشينج لى" المندوب من منطقة شيجيانج ذاتية الحكم لقومية "الويجـور" إن الفكر المهم للتمثيلات الثلاثة مد جذوره فى قلوب مئات الملايين من المواطنين نتيجة لتعزيز دراسة وتطبيق هذا الفكر فى جميع أنحاء الصين خلال العامين الماضيين".

وقال وانج قوه شينج، المندوب من شركة هاندان ستيل الكبرى للحديد والصلب بمقاطعة خبى شمال الصين، إن أى نظرية لا تؤمن بها جماهير الشعب إلا إذا كانت تفيدها. وأضـاف أن "التمثيلات الثلاثة" هى ذلك النوع من النظريات التى حققت المنفعـة للشـعب الصينـى، مستشهدا بتحسن أداء شركته والزيادة السريعة فى دخل حوالى ٣٠ ألف موظف بها خـلال الأعوام الماضية.

وقال تشيو خه المندوب من مقاطعة جيانجسو بشرق الصيـن، إن "التمثيـلات الثلاثـة" عززت بدرجة كبيرة من تنمية القوى الإنتاجية، والتقدم الاجتماعى الشامل، وتحرير العقـول فى كافة أنحاء البلاد. وأضاف: "يجب أن نعزز تطبيق هذا الفكر المهم". مضيفـا أن تعديـل دستور الحزب كى يتضمن "التمثيلات الثلاثة" سيكون حتما أحد أهم إنجازات هذا المؤتمر.

كما تعهد نواب الحزب الشيوعى الصينى من جيش التحرير الشعبى بإقرار وتثبيت الوضع الريادي لفكر التمثيلات الثلاثة فى الجيش، وذلك بعد أن بحثوا تقرير جيانج إلى المؤتمر.

وقالوا إن النظريات المهمة حول الدفاع الوطنى وبناء الجيش فى تقرير جيانج قدمت دليلا أوضح لبناء جيش اكثر حداثة وتنظيما.

ومن جانبه قال ويه جيان شينج: "إن استراتيجية تنمية غرب الصين تعد ممارسة عظيمة لتنفيذ الفكر المهم للتمثيلات الثلاثة ولبناء مجتمع الرخاء". وتتكون المناطق الغربية من ١١ مقاطعة ومنطقة ذاتية الحكم ومن بلدية واحدة، ويصل إجمالى مساحتها إلى ٦,٨٥ مليون كم مربع وتعداد سكانها إلى ٣٦٤ مليون نسمة. ولكن متوسط إجمالى الناتج المحلى للفرد هناك يمثل فقط حوالى ٤٠ فى المائة من مثيله فى المناطق الساحلية الشرقية المتطورة. وكانت الصين قد بدأت حملة تنمية المنطقة الغربية فى عام ١٩٩٩ مع وجود رئيس مجلس الدولة تشو رونج جى رئيسا للمجموعة الرائدة لتنمية المناطق الغربية التابعة لمجلس الدولة.

الصين الواحدة

وعلى الرغم من تشعب أوضاع الصين الداخلية فإن الرؤية في المؤتمر لم تكن محلية فقط، فقد أشار جيانج تسه مين فى التقرير الذى ألقاه فى المؤتمر إلى أن السلام والتنمية سيظلان موضوعين رئيسيين فى العصر الراهن، ولكن النظام السياسي والاقتصادي الدولي القديم غير العادل واللامعقول لم يتغير جوهريا. وأضاف أن الصين تنتهج سياسة خارجية سلمية ومستقلة بصورة ثابتة ودعوية، وتدعو إلى تأسيس نظام سياسي واقتصادي دولي جديد عادل ومعقول، والحفاظ على التنوع العالمي ومقاومة الإرهاب بشتى أشكاله.

وبشأن تايوان دعا جيانج تسه مين مرة أخرى إلى استئناف الحوار والمفاوضات بين جانبى المضيق(مضيق تايوان) فى أسرع وقت ممكن على أساس مبدأ "الصين الواحدة" وتنحية بعض المنازعات السياسية الصغيرة بصورة مؤقتة جانبا. وقال جيانج إن التمسك بمبدأ الصين الواحدة هو الأساس لتطوير العلاقات بين جانبي المضيق وتحقيق التوحيد السلمي. وأضاف: لا يوجد في العالم سوى الصين الواحدة التى ينتمي إليها كل من البر الصيني الرئيسي وتايوان. وأضاف: إننا نعارض بعزم وحزم أية أقوال وأفعال تهدف إلى

"استقلال تايوان" لأن مستقبل تايوان يكمن في التوحيد مع الوطن الأم، ونحن نرغب في تبادل الآراء مع مختلف الأحزاب والشخصيات في مختلف الأوساط في تايوان حول تطوير العلاقات بين جانبي المضيق ودفع التوحيد السلمي.

وقال: "إننا نعلق آمالا على أبناء الشعب التايواني في تسوية مسألة تايوان وتحقيق التوحيد الكامل للوطن الأم. إن مواطني تايوان يتحلون بالتقاليد الوطنية المجيدة، وهم قوة مهمة لتطوير العلاقات بين جانبي المضيق، وإننا نحترم تماما نمط حياتهم ورغبتهم في كونهم أسياد الدولة، وينبغي للجانبين أن يوسعا التبادلات والاتصالات وأن يطورا التقاليد الممتازة للثقافة الصينية، وإن التبادل المباشر للخدمات البريدية والجوية والتجارية بين جانبي المضيق تكمن فيه المصالح المشتركة للمواطنين على الجانبين، لذا يجب التشجيع على ذلك باتخاذ إجراءات عملية نشيطة، وإيجاد وضع جديد للتعاون الاقتصادي بين الجانبين.

وقال جيانج تسه مين: إن شعار "دولة واحدة ونظامان" يعد أفضل وسيلة لتوحيد جانبي المضيق. وبعد تحقيق هذا التوحيد يمكن لتايوان أن تحافظ على النظام الاجتماعي الأصلي دون تغيير وتتمتع بدرجة عالية من الحكم الذاتي.

وفي عبارة لها مغزى خاص قال جيانج: سيبقى نمط حياة مواطني تايوان دون تغيير، ويمكن ضمان مصالحهم الحيوية تماما وهم يستمتعون بالأمان والسلام دائما وأبدا، وسيحصل الاقتصاد التايواني على مجالات واسعة للتنمية بالاعتماد على الوطن الأم كمناطق انتشار حيوى له، ويمكن لمواطني تايوان، مثلهم مثل مواطني البر الصيني الرئيسي أن يشاركوا في ممارسة حقوقهم في إدارة شئون الدولة وفي التمتع بالكرامة والشرف للوطن الأم العظيم على الصعيد الدولي.

وأشار جيانج تسه مين إلى أن مواطني تايوان - البالغ عددهم ٢٣ مليونا - هم أشقاؤنا، ولا أحد يأمل أكثر منا في تسوية مسألة تايوان بالطريقة السلمية.

وقد أبدت وسائل الإعلام التايوانية اهتماما بالغا بالمؤتمر الوطنى الـ ١٦ للحزب الشيوعى الصيني، ونشرت أخبارا تتعلق بافتتاح المؤتمر والتقرير الذى قدمه جيانج تسه مين إلى المؤتمر، خصوصا ما تضمنه عن توحيد الوطن. وبثت محطات التلفزيون والإذاعة التايوانية على الهواء مراسم افتتاح المؤتمر والقضايا الرئيسية في تقرير جيانج تسه مين.

يعي ما يقول

وأخيرا يبقى أن نركز قليلا على رأي "هو جين تاو" قائد الصين الصاعد، ويقول: إن المؤتمر الوطنى السادس عشر للحزب الشيوعى الصينى يعد اجتماعا مهما للغاية فى القرن الجديد، وإن تقرير جيانج تسه مين نيابة عن اللجنة المركزية الخامسة عشرة للحزب الشيوعى الصينى يعد بمثابة دليل جيد لبناء مجتمع الرخاء ويشكل مسعى لتعزيز الحداثة الاشتراكية. وأضاف أن تقرير جيانج تسه مين يعطى رؤية علمية مفادها أن الأعوام العشرين الأولى من هذا القرن تعد بمثابة فرصة استراتيجية للصين.

والحقيقة أن "هو" نطق بالحقيقة، فخلال العشرين سنة المقبلة سيتغير الكثير في العالم إذا واصلت الصين معدلات النمو السريع التي ستؤهلها في عام ٢٠٢٠ أو عام ٢٠٢٥ على الأكثر لتحقيق ناتج محلي إجمالي يفوق الناتج المحلى الأمريكي، وهنا ستنقلب معادلات عالمية كثيرة. ويبدو أن "هو" يعني ما يقول.

منزلة المرأة بين الفكر الفلسـفي والفكـــر الـــديـنـــي

■ فريدة النقاش

انشـغل الفكـر الفلسفي بكـل فروعـه السياسـية والاقتصاديـة الثقافية والاجتماعية ، السيكولوجية والأنثروبولوجيه بقضية المـرأة ، كما انشغل بها الفكر الديـني بكـل مدارسـه وتوجهاتـه وميادينـه انشغالاً كبـيراً رغـم الاختـلاف البـين في طبيعـة وأدوات وتوجـهات وآفاق الانشغال في المجالين.

وينشـغل هـذا البحـث بالدرستين الفلسـفتين العصريتـين الرئيسـيتين وهمـا الليبراليـة والماركسية وبالديانتين الغالبتين في الوطن العربي هما المسيحية والإسلام رغم الإقـرار بـأن اليهوديـة هي رافد من روافد الثقافة العربية ورغم أن نظرتها هي الأكثر مغالاة في الديانـات الثـلاث في اعتبـار المرأة كائناً ناقصاً .

وقد نشأت حركة نسوية واسعة في الوطن العربي والعالم قادمة من منـابع مختلفـة وأخـذت تقدم أفكارها ورؤاها وهي تكافح من أجل تغيير الواقع حتى راكمت تراث ما زال يحتـاج إلى الـدرس ولا يمكن تجاهله .

الملكية الخاصة

انشغلت الفلسفة في قضاياها الأساسية بالوجود الإنساني وبالوعي والماهيـة ، كمـا أنشـغلت بالفرد والمجتمع والعلاقة بينهما ، وعلى هامش هذا الانشغال سألت إذا ما كان الرجل والمرأة أفـراداً

بنفس المعنى ،وطرحت افتراضات حول طبيعة الرجل وطبيعة المرأة والفروقات بينهما ومدى اتساعها وقدرتها على أن تجعل من الرجل والمرأة كائنين مختلفين اختلافا لا يمكن تجاوزه رغم التماثلات بينهما ، أو اختلافاً يمكن تجاوزه في المجتمع .

ولا تميز الليبرالية بين الرجل والمرأة من حيث كونها هي ذاتها نسقاً من المعتقدات والقيم والأفكار التي تنطوي على توجهات معرفية وأخلاقية وميتافيزيقية معنية بالإنسان الفرد- الذي يعيش في مجتمع من أفراد آخرين- ساعياً لتحقيق مصالحه ومتطلباته في مواجهة المصالح والمتطلبات العامة ، والفرد في الفكر الليبرالي هو الإنسان رجلاً كان أو امرأة. وقد تبلورت الليبرالية مع نشوء وتطور النظام الرأسمالي وارتبطت دعوتها للحفاظ على الحريات العامة والمدنية مثل حرية الفكر والتعبير والاجتماع والاعتقاد بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وبحق هذه الملكية في العمل بحرية دون أيه قيود وبأسبقية الفرد في الوجود على المجتمع ،إذ إن المجتمع هو ائتلاف من الأفراد الأحرار والفرد هو بطبيعته كائن حر ومستقل وإنه عادة ما يؤثر نفسه على الآخرين وهو يسعى لنفعه الخاص ويمارس حريته إلى أقصى مدى شرط ألا يتعارض ذلك مع حرية الآخرين ، وقد كان ظهور هذا التعارض الذي ترتبت عليه مآسٍ اجتماعية كثيرة هو السبب الرئيسي في تطور الليبرالية ثم انشغالها بموضوع العدالة الاجتماعية وتأسيسها لدولة الرفاه في أوروبا وأمريكا وهي الدولة التي مارست التدخل في تعارض مع أسس الفكر الليبرالي الكلاسيكي ، وكان تدخلها يتم لكي يمنع البعض من الإجحاف بحقوق البعض الآخر .

إذن فالليبرالية بالتعريف هي " ميتافيزيقيا ، الفرد كائن حر ومستقل بالطبيعة ، وهو الأساس أي أساس المجتمع ، إبستمولوجيا (معرفيا) هو كائن عقلاني ، يجيد حساب الوسائل المؤدية إلى الغايات ، أما أخلاقياً فله الحق في العيش بحرية سعياً وراء تحقيق غاياته الفردية مقابل الواجب المفروض عليه باحترام حق الآخرين في العيش بحرية مشابهة سعياً وراء تحقيق غاياتهم

الفردية ، وأخيراً من الناحية السياسية يلتزم الفرد بالخضوع للسلطة السياسية طالما استمدت شرعيتها من الموافقة الحرة ([1]) .

وقد عرفت الليبرالية طريقها إلى الفكر العربي الذي تطلع إلى تحرير العقل في سياق بحثه عن أسس للتحرير والنهضة لا تتناقض مع العقائد .

كذلك ولدت الحركة النسوية الليبرالية التي أدركت منذ البداية أن هناك نقاط ضعف في المنظومة الفكرية لليبرالية فيما يتعلق بالمرأة حتى ان النسوية الراديكالية اتهمت المدرسة الليبرالية بالذكورية .

مفهوم الفردية

وبوسعنا أن ننسب إلى النسوية الليبرالية إنجازات الفكر النهضوي النسوي العربي أو إنجازات المفكرين الرجال الذين اعتنوا بقضية المرأة في القرن العشرين مع تنويعات على أفكار الليبرالية الأساسية هنا وهناك من " زينب فواز " إلى " محمد عبده " " ملك حفني ناصف " ومن " قاسم أمين " إلى " نبوية موسى " ، ومن " مي زيادة " إلى " درية شفيق " وفي قلب الفكر النسوي الليبرالي العربي ظهر ميل أقوى إلى النظر للفروقات البيولوجية بين الرجل والمرأة نظرة اجتماعية لا تقلل من أهميتها إنما تؤكد أنها لا ترتب أي فروقات عقلية أو أخلاقية وأن الأخيرة هي من صنع الظروف الاجتماعية وليست قدراً ثابتاً لا يتغير .

وقد أنتجت الفلسفة الليبرالية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار ـ المعسكر الاشتراكي وذبول دولة الرفاه أنتجت الليبرالية الجديدة التي وصفها علماء الاجتماع والاقتصاد التقدميون بالمتوحشة ، وهي تتأسس لا فحسب على عبادة السوق والفردية المتطرفة وإنما تعتبر الإنسان لا المجتمع مسؤولاً مسؤولية كاملة عن كل ظروفه : عن فقره إن كان فقيراً ، وعن غناه إن كان غنياً ..

---

[1] رجا بهلول ـــ المرأة وأسس الديمقراطية في الفكر النسوي الليبرالي مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديموقراطية ـــ رام الله ١٩٩٨ ص ٤٠

فالقضية هي الإرادة الإنسانية، وتلتقي هذه الليبرالية الجديدة مع نظرية " دارون " حول الانتخاب الطبيعي . وعلى الصعيد النسائي كانت محصلتها الأولية هي ظاهرة التأنيث الواسع النطاق للفقر والجوع والأمية ، ونشأت في ظلها ما أسمته الباحثة " خديجة صفوت " بالنسوقراط وهي نخبة تستفيد من فرص قدمتها لها الليبرالية الجديدة عبر المؤسسات الدولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والشركات عابرة القوميات والأمم المتحدة ، وقد أصبحت هذه النخبة من أشد المتحمسين لسياسات الليبرالية الجديدة بفرديتها المتطرفة وحريتها المقصورة على الذين يملكون، " فهي تأخذ على عاتقها إعلاء أولويات النساء المختارات والمطالبات بالمزيد من الامتيازات للنساء مكونات الزعامة من فوق المنابر بطروحات وأجندة تجعل من جنس المرأة طبقة غير معرفة وتنصبها في حرب جميع النساء ضد جميع الرجال ، وقد أخذت النسوقراطية**Feminorat** تتألف تباعاً ومنذ منتصف السبعينيات من أقليات لنساء ممتازات مكونة ، امتيازاتهن ، وتشارك تلك الأقلية الممتازة مع الجماعات الممتازة في العالم فائض عمل الأغلبية من المنتجات والمنتجين لكل من القطاع الأهلي والعاملين في أسواق العمل المكونة المعولمة ، إذ تتبادل مسارات صعود النسوقراط إلى قيادة المرأة الاعتماد مع مسارات كل من السلطة والثروة ونمط وأسلوب الحياة والإنفاق والاستهلاك لأقلية من النساء والرجال ..([2])

المرأة فى الماركسية

تضم الكتابات التأسيسية للنظرية الماركسية كتاباً بالغ الأهمية وأساسياً هو " أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة " لفريدريك إنجلز ، والذي يعتمد عليه هذا البحث في إظهار الأسس العامة لاضطهاد وإخضاع النساء الذي بدأ طبقاً للماركسية مع ظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات وهو ما تزامن مع انهيار مكانة المرأة .

ففي ظل النظام الرأسمالي تتم عملية إنتاج السلع والخدمات الضرورية للعيش خلال عملية اجتماعية شاملة،بينما تتم عملية تجديد الإنسانية وإعادة إنتاجها أي ولادة الأطفال وتنشئتهم

[2] نقلا عن فريدة النقاش ، المحددات الثقافية لوضع المرأة في مصر ــ خطوط عامة ، بحث غير منشور ص٢٨

كعملية خاصة بكل أسرة والتي يجري في ظلها إخضاع النساء بسبب هذه الازدواجية والتناقض بين الشكلين للإنتاج ، ولذا فإنه طبقاً للماركسية لا يمكن فصل النضال من أجل تحرير النساء عن النضال ضد الرأسمالية بما أن الماركسية لا تكتفي بتفسير العالم بل تبين أيضاً شروط وسبل ووسائل تغييره ، هذا التغيير الذي ينبع كضرورة من تناقضات المجتمع الرأسمالي ، وحيث كل مرحلة من تطور المجتمع طبقاً للديالكتيك المادي التاريخي هي مرحلة عابرة مهما طالت وسوف يفضي نضال الطبقة العاملة وحلفائها وهو يقرن النظرية بالممارسة في خاتمة المطاف إلى تصفية استغلال الإنسان لأخيه الإنسان واستغلال الرجل للمرأة " .

ولابد من ملاحظة أن الماركسية على عكس الليبرالية ترى أن الأولوية للمجتمع وأن الفرد هو جملة العلاقات الاجتماعية كلها . ويتتبع إنجلز في كتابه تراجع المجتمع الأمومي الذي كان الأطفال ينسبون فيه إلى أمهاتهم فكان الإرث ينتقل إلى الأقرباء بالدم من ناحية الأم .

وبقدر ما كانت الثروات تتنامى ، كانت من جهة تعطي الزوج في العائلة مركزاً أهم من مركز الزوجة ، وكانت من جهة أخرى تولد السعي إلى الاستفادة في هذا المركز المترسخ لأجل تغيير نظام الوراثة التقليدي في مصلحة الأولاد ، ولكنه لم يكن من الممكن أن يتحقق هذا مادام النسب كان يحسب تبعاً للحق الأمومي ، ولهذا كان ينبغي إلغاء هذا الحق ، فألغى ..." ([3]) .

" إن إسقاط الحق الأمومي كان هزيمة تاريخية عالمية للجنس النسائي ، فقد أخذ الزوج دفة القيادة في البيت أيضاً ، وحرمت الزوجة من مركزها المشرف ، واستذلت ، وغدت عبدة رغائب زوجها ، وأمست أداة بسيطة لإنتاج الأولاد .. " ([4])

وهكذا نشأت العائلة الأحادية التي لا تدخل في التاريخ أبداً باعتبارها اتحاداً اختيارياً بين المرأة والرجل ، بل هو استعباد جنس لآخر وإعلان للتناقض بين الجنسين لم يعرفه التاريخ من قبل

[3]ــ فريدريك إنجلز ، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، ضمن ماركس إنجلز منتخبات في ثلاثة مجلدات ، المجلد ٣ ــ الجزء ٢ ، دار التقدم ــ موسكو ١٩٨١ ص٥٥ .

[4]ــ المصدر السابق ص ٥٧

وقد تطورت وتنوعت إسهامات المفكرين الذين انتسبوا إلى الماركسية مستخدمين منهجـها . وسوف أتوقف أمام الماركس البنيوي " بيير بورديو " الذي خصص واحداً من كتبـه الأخـيرة قبـل أن يرحل عن عالمنا " للسيطرة الذكورية " مستخدماً مفهومين من ابتكاره هما الرأسمال الرمزي والعنـف الرمزي والذي ربط بينه وبـين السيطرة الذكوريـة ، حيـث شـاعت أنمـاط تفكـير هـي نفسـها نتـاج للسيطرة ذلك أن " النظام القائم ، بعلاقات السيطرة فيه ، بحقوقه وحقوقه المكتسبة دون وجه حق ، بامتيازاته ومظالمه ، يتأبد بشكل حاسم بكل هذه السهولة باسـتثناء بصنـع حـوادث تاريخيـة ، وأن شروط الوجود الأشد فظاعة يمكنها مراراً أن تبدو مقبولة بل وطبيعية . كذلك رأيت دوماً في السـيطرة الذكورية وبالطريقة التي يتم بها فرضها ومكابدتها المثال بامتياز على هذا الخضـوع المتنـاقض الـذي هو نتيجة لما أسميه العنف الرمزي الناعم ، غير المحسوس ، غير المرئي حتى من جانب ضحايـاه ، والذي يمارس من الناحية الجوهرية بالطرق الرمزية الخالصـة للتواصل والمعرفة ، أو بـالأدق لإسـاءة المعرفة ٠٠"([٥]).

وأخذ " بورديو " يفكك ويحلل ويعيد تركيب السيرورات المسئولة عـن تحويـل التـاريخ إلى طبيعة ، وتحويل ما هو تعسفي ثقافي إلى طبيعي ، وطالما حذرتنا نظرية الممارسة من النزعة الثقافيـة ويعكف " بورديو " على التحليل المادي لما أسمـاه بالسـلع الرمزيـة واقتصادياتـها نافيـاً ذلـك الخيـار المدمر بين المادي وبين الروحي أو المثالي والذي ما يزال قائماً حتى هذه اللحظـة مـن خـلال التعـارض بين الدراسات المسماة ماديـة ـ أي الماركسية ـ والـتي تتجـه إلى تفسـير التفـاوت بـين الرجـل والمرأة بشروط الإنتاج الاقتصادي ، وبين الدراسات المسماة رمزية ٠٠ والتي أطلق " بورديو " على مكوناتـها وصف رأس المال الرمزي وهي دراسات عادة ما تكون متميزة لكنها غالباً جزئية وقد حللها " بورديو " بدورها على أساس مادي فيما أسماه بالنظرية المادية لاقتصاد السـلع الرمزيـة ووضـع النسـاء فيـها والذي يمثل الزواج جزءاً محورياً فيه كاشفاً عن البعد الرمزي للسيطرة الذكورية القائم على ما أسمته

٥ ـــ بيير بورديو ، السيطرة الذكورية ، ترجمة أحمد حسان ، كتاب العالم الثالث ـــ القاهرة ٢٠٠١ ص١٥

" فيرجينيا وولف " السلطة الإيحائية للسيطرة ، رافضا إضفاء الطابع الاجتماعي على ما هو بيولوجي أو إضفاء الطابع البيولوجي على ما هو اجتماعي ، وهي العملية التي تجذرت وتراكمت نتائجها عبر القرون حتى بدا التقسيم إلى جنسين كأنه أكثر الأشياء طبيعية في النظام الاجتماعي مما حدا بعلماء النفس أن يستعيدوا لحسابهم الرؤية الشائعة للجنسين بوصفهما مجموعتين منفصلتين جذريا دون تقاطعات ".

لكن " بورديو ينبه مع ذلك إلى ما يسميه " بالميل الباطني " الذي تكون نتيجته هي إنتاج التقاءات متناغمة بين الاستعدادات وبين المواقع بحيث تجعل من الممكن لضحايا السيطرة الرمزية أن ينجزوا بسعادة وبالمعنى المزدوج ، المهام التابعة أو المرؤوسة المنوطة بفضائلهم في الخضوع واللطف والوداعة ، والتفاني وإنكار الذات ..."([6]).

لكن ثمة رؤية أنثوية للرؤية الذكورية إذ " تفرض البنية قيودها على طرفي علاقة السيطرة ومن ثم على المسيطرين أنفسهم الذين يمكنهم الاستفادة منها ، بينما ، وفق كلمة ماركس ، تسيطر عليهم سيطرتهم ويرجع هذا ، كما تبين بشكل كاف فعلا كل الألعاب المرتبطة بالتعارض بين الضخم والضئيل ، إلا أن المسيطرين لا يمكن أن يفوتهم أن يطبقوا على أنفسهم ، أي على جسدهم وكل ما يفعلونه ويكونونه مخططات اللاوعي التي تولد في حالتهم ، متطلبات جسيمة ، كما تحدس ، وتعترف بذلك ضمنيا النساء اللاتي لا يردن زوجا أضأل منهن ..." ([7]) .

ويستخلص إنها التأثيرات الأشد خفاء لشكل من السيطرة منقوش داخل كل النظام الاجتماعي ويعمل في ظلمة الأجساد.." ([8]) .

ويدعو " بورديو " الباحثين أن يقوموا بمواصلة ذلك العمل الذي بدأه ألا وهو إعادة بناء العمل التاريخي لنزع الطابع التاريخي ، أي عملية إعادة الإنتاج المتواصلة للبنيات الموضوعية والذاتية للسيطرة الذكورية التي يتم إنجازها على الدوام منذ أن وجد الرجال والنساء والتي تمت

[6] ــ بورديو ، المصدر السابق ص٥٥

[7] ــ بيير بورديو ، المصدر السابق ص٦٣

[8] ــ بيير بورديو ، المصدر السابق ص ٧١

عبر الأسرة والكنيسة والدولة والمدرسة والحزب وكل المؤسسات الاجتماعية الأخرى ، وتنامت من بينها ثلاث مؤسسات هي الأسرة والكنيسة والمدرسة في العمل على البنيات اللا واعية حيث نشأ وترسخ ما أسماه بالنظام الأبوي العمومي الذي ينتقص من الرأسمال الرمزي للنساء بسبب الأنوثة ([9]).

ويصل " بورديو " إلى استنتاج مشابه لما توصل إليه " إنجلز " حول شكل الأسرة القادمة في مجتمع متحرر من الملكية الخاصة والاستغلال فيقول " بورديو ": " الحب الخالص ، هذا الفن للفن في الحب هو ابتكار تاريخي حديث نسبياً ، مثل الفن للفن الذي هو حب خالص للفن والذي يرتبط به تاريخياً وبنيوياً .. إنه الاعتراف المتبادل ، وتبادل مبررات الوجود والشهادات المتبادلة على الثقة ، كلها علاقات على التبادلية الكاملة التي تضفى على الحلقة التي يحبس الثنائي العاشق نفسه داخلها ، تلك الوحدة الاجتماعية الأولية التي لا تنقسم والمتمنعة باكتفاء ذاتي رمزي قوي ، سلطة أن تباري منتصرة كل التكريسات التي تطلب بشكل عادي من مؤسسات وطقوس المجتمع " ([10]).

فهل هي نتائج الثورة الثقافية العارمة التي شهدتها أوروبا ولعب فيها الفكر الماركسي بكل تنويعاته وأطيافه دوراً كبيراً والتي يمكن فهمها باعتبارها انتصاراً للفرد الحر على قيود المجتمع ومن ثم بزوغاً واثقاً لفردية نسائية تنطوي على توسع الاختيارات وقدرة أكبر على تملك المصير خاصة بعد أن أصبح انخراط النساء على نطاق واسع في الإنتاج الاجتماعي واقعاً ملموساً .

جذور التميز

لم تساو كل الأصوليات الدينية بين النساء والرجال سواء كانت ديانات سماوية أو غير ذلك . رغم أن لفظ الإنسان هو من أكثر الألفاظ تكراراً في القرآن الكريم " إلا أن وضع المرأة ومكانتها وحقوقها في النص المؤسسي جاءت متناقضة وتراوحت بين المساواة بين الرجل والمرأة من حيث كونهما خلقاً من نفس واحدة وبين وضع المرأة في مكانة أدنى .. وكان السبب الرئيسي لتدني هذه

---

[9] ـــ بور بورديو ، المصدر السابق صد ٩٠

[10] ـــ بيير بورديو ، المصدر السابق ص ٩١

المكانة هو جسدها ووظائفها البيولوجية ، أي اختلافها الفسيولوجي عن الرجل ، وهو الاختلاف الذي قنن له الفقه وعلوم التفسير التقليديان على أساس أن الاختلاف لا يمكن أن يلد المساواة وأن الإنسان هو الرجل في خاتمة المطاف .

ومن المعروف أن كل الديانات السماوية التي تضمنت هذه الفكرة بطريقة أو أخرى ولنفس الحيثيات تقريباً قد تعاملت مع المسألة الأساسية في الفلسفة ونظرية المعرفة حول الوجود والوعي أو المادة والروح من موقع أولوية الروح والوعي وفي نظرها جميعاً أن الله هو روح العالم وهو الموجود الأول الذي نشأت الخليقة بأمر منه أي أن الإحساس والمدركات والوعي هي الوقائع الأولية وهي جميعاً رجولية ضمناً بما أن الله مذكر .

وقد حرص المفكرون المستنيرون والتقدميون الإسلاميون الذين تعاملوا مع الدين باعتباره واقعة تاريخية على أن يفصلوا بين ألوهية النص وتاريخية التلقي حتى يكون بوسعهم أن يطوروا تأويلهم وقراءاتهم للقرآن الكريم لصالح قضية تحرير المرأة .ومع ذلك بقى الفكر الديني التقليدي مسيطراً على الساحة وقد ثبتت فورة النفط التي شهدتها الجزيرة العربية والخليج أركان هذه الروح المحافظة والمعادية للمرأة . وكان نصيب المجددين هو الطرد من الجامعات أو القتل أو النفي خارج الوطن.

وترتبت على النزعة المحافظة والتأويل التقليدي للنصوص مجموعة من الممارسات الاجتماعية والقانونية المعادية للمرأة باسم الإسلام مثل منع المرأة من السفر إلا بموافقة الزوج ، أو حبس نساء لأنهن غامرن بقيادة السيارات ، أو منع الاختلاط في المدارس والجامعات ، أو تطبيق ما يسمى بنظام الطاعة لأن المرأة ناشز ، أو رفض منح الجنسية لأطفال الأم المتزوجة من أجنبي على أساس أن الجنسية هي حق الدم والدم هو للأب ، والعمل في كل البلاد العربية ـ باستثناء تونس ـ بمقتضى قوانين للأحوال الشخصية مستمدة من الشريعة وتنتقص من حقوق المرأة .

الطاعة والولاية

وعلى أساس من الدين تحفظت الغالبية العظمى من البلدان العربية والإسلامية على مجموعة من مواد الاتفاقية الدولية لإلغاء كل أشكال التمييز ضد المرأة ، وهي الاتفاقية التي تجسد رؤية إنسانية شاملة للمساواة الكاملة بين الجنسين على أساس من إنسانيتها ذاتها ، والاتفاقية تستلهم كل ما هو إيجابي في الثقافات والديانات والحضارات الإنسانية كافة .

وكان هناك إجماع للمتحفظين على رفض المادة الثانية من الاتفاقية التي تدعو البلدان كافة " لتجسيد مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في دساتيرها الوطنية أو تشريعاتها المناسبة الأخرى ·· "

بل وحين حكمت المحكمة الدستورية العليا في مصر بحق المرأة في التنقل والسفر عادت وذيلت الحكم بدعوة المشرع لإصدار قوانين في هذا الصدد لا تخالف مبادئ الشريعة الإسلامية ، مما أعاد الموضوع إلى المربع الأول كما يقال ، إذ دائماً ما يشهر الرجل سلاح القوامة إذا تعنتت مع المرأة وبوسعه كذلك أن يمنعها من السفر ، ويستند المحافظون إلى نصوص قرآنية وأحاديث نبوية

وفي المسيحية جاءت عملية خلق المرأة كتابع للرجل من حيث ان خلقها جاء متأخراً بعد أن خلق الرجل لكي تقوم المرأة على خدمته ، بل وجرى إلقاء اللوم على حواء في خروج البشرية من الجنة والذي تم تفسيره لقرون عديدة على انه سبب لحرمان المرأة من القيام بالوعظ وتولى المناصب الكنيسية ··

وظل جسد المرأة هو أحد أسباب دونيتها. وقد سببت عذرية السيدة مريم مشكلات كثيرة " ورأت بعض الكاتبات النسويات في هذه العذرية والإعلاء من شأنها في العهد الجديد دلالة على إدانة الحس الجنسي لدى المرأة ، وخاصة عند بعض المفسرين الذين يصرون على عذرية مريم حتى بعد ولادتها للمسيح ، حتى إنهم يفسرون ذكر أخوة وإخوات ليسوع صراحة في النص الإنجيلي على أنها

ذكر مجازي بينما هم في حقيقة الأمر أبناء عمومة أو هم أبناء يوسف من زواج سابق ، في محاولة لنفي تهمة إقامة العلاقات الجنسية عند مريم حتى في إطار الزواج ... " ([11]) .

وقد تأثر الخطابان الإسلامي والمسيحي كل منهما بالآخر ، وقالت لي باحثة تجمع مادة حول مسألة ضرب الزوجات إن رجلاً مسيحياً برر ضربه لزوجته بأن الدين يقول واهجروهن في المضاجع واضربوهن ويتصور الرجل أن هذا النص هو من الدين المسيحي!

كذلك يؤثر الخطاب الديني المحافظ تأثيراً واسعاً على المتعلمين ويقرر الدكتور عادل أبو زهرة أستاذ العلوم السلوكية في حوار معه أن بحثاً يجريه أثبت أنه كلما كان الشخص متعلماً كان سنده في العنف ضد المرأة دينياً ، بنسبة ٨٠٪ بينما كان سند الأميين دينياً بنسبة ٥٠٪ فقط.

ردود الحركة النسوية

قدمت الحركة النسوية بكل توجهاتها وتياراتها ردوداً متباينة على الأفكار والآليات التي أدت إلى تدني منزلة المرأة في الفكرين الفلسفي والديني بحثاً عن الفلسفة السياسية والاجتماعية والثقافية التي من شأنها أن تساعد المجتمع في رسم معالم النظام السياسي ـ الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي يأخذ مصالح المرأة وحقوقها وقدراتها في الاعتبار ، وعندما تتحدث عن المرأة فإنما تعني بها ملايين النساء الشعبيات وليس نساء الطبقة الوسطى والطبقات العليا فقط .

وفي هذا السياق برز النوع الاجتماعي في السنوات الأخيرة كموضوع للبحث المكثف بحيث صارت آثاره تنعكس على أساليب البحث والتفكير والنقد والتنظير ، ولا تستطيع باحثة أو باحث في قضايا المرأة أن يتجاهل لا مفهوم ولا الإنجاز المتراكم للفكر النسوي .

إن الفلسفة الليبرالية التي بنيت على أولوية الفرد على المجتمع وحريته التي لا يجوز ان تحدها حدود في تكوين الثروة والتملك وساوت نظرياً بين الرجال والنساء وجدت نفسها بعد قرون من الممارسة وهي تقف وجهاً لوجه أمام عجز المرأة عن الدخول في المباراة ، بل وأمام النتائج المأساوية

---

[11] الكتاب المقدس وفقاً لحواء عرض منى إبراهيم في إطار النسوية والهوية .. مجلة طيبة ـــ العدد التجريبي يناير ٢٠٠٢ ص ١٧٥

للمباراة ذاتها التي أدت لتركز الثروة واتساع قاعدة الفقر وبروز ظاهرة تأنيثه مع أشكال التمييز المختلفة ضد النساء ، وهو تمييز يمنح مشروعية للأسئلة التي طرحتها الفلسفة الليبرالية في بدء نشأتها مثل: هل المرأة مخلوق مختلف عن الرجل كثيراً أو قليلاً ، جوهرياً أو عرضياً ، وهل الفروقات تتطلب فكراً يختلف عما تسمح به الليبرالية حتى في المجالات الأخلاقية والعقلانية والنظرة العامة للوجود.؟

إن موقع المرأة في النظام الاجتماعي يلعب دوراً مركزياً في تحديد مفاهيم الحرية والفردية والاستقلال وحيث الفروق القائمة اليوم بين الجنسين نفسياً وفيسيولوجياً هي مرهونة بالمجتمع وقد جرى صنعها في المجتمع وصولاً إلى ما يسمى بالخصائص والقدرات الأنثوية التي ليست مغايرة في نوعها فحسب بل أيضاً متدنية القيمة في المعايير الدارجة وعندما يكون علم النفس السائد أداة للسائدين أي للرأسمال والبطريركيه فهو يستخدم لحجب البني التسلطية ([12]).

وتضيف الباحثة ناقدة للتحليل الماركسي " إن النساء في الوقت الحاضر ، بغض النظر عن طبقاتهن يخضعن لعلاقات استغلال وتسلط نوعيين ، وفي دراستي هذه سوف أستبعد الجانب الطبقي لذاته ، رغم معرفتي ، بأن هذا ليس ممكناً في الحقيقة ، لأن الجانب الطبقي متشابك مع الجانب الجنساني ولا يمكن رصد أنماط هذا التشابك عن كثب إلا إذا وجد إلى جانب التحليل الطبقي المتوافر تحليل للعلاقات الاجتماعية ذات الطابع الجنساني ٠٠"([13]).

ولا يقدم المنظرون الاشتراكيون جواباً على مسألة من أين تأتي الاستعدادات الطبيعية للكفاءات الجنسانية ، بل إنهم يبقون السؤال على حاله بإشارتهم إلى " الاستعدادات الطبيعية " و" الحاجات " و" الصدف " الخ ، الأمر الذي يهزأ بمنطلقاتهم "([14]) .

كذلك فإن سيادة النساء وجدت في دولة عالية التطور ولم ترتبط فقط بالمجتمعات الأمومية ، وفي المرحلة البربرية كما وصفها إنجلز ، وجدت هذه السيادة في مصر وفي المنطقة التي تقع عليها

---

[12] أصل الفروق بين الجنسين أورزولاشوي ، ترجمة بو علي يسن ، دار النهر ـــ بيروت ص ١٦ـــ ١٩٨٢

[13] المصدر السابق ص١٩

[14] المصدر السابق ص٢٨

تركيا حالياً وفي اليونان وغيرها وتميزت بسيادة النساء وتدني منزلة الرجال واضطهادهم ، وبمعاكسة مطلقة لتقسيم العمل بين الجنسين ، هنا أيضاً وجدت بناء على تقسيم العمل الجنساني فروق مميزة للجنسين ، إنما معكوسة تماماً ، هذا يعني أن النساء كن يمتلكن الخصائص والقدرات التي يملكها الرجال الآن ، والرجال كانوا يملكون الخصائص التي تملكها النساء الآن ، لقد وجدت هذه التقسيمات في مجتمعات متطورة ، فيها ملكية خاصة ، وتقسيم متطور نسبياً للعمل الاجتماعي وتجارة وطبقات وعبيد ومؤسسات حكومية ..." [15]

وقد أثبتت مارجريت ميد في أبحاثها عن قبائل غينيا الجديدة أنه توجد أشكال اجتماعية لا وجود فيها للفرق بين الجنسين كما نعرفه اليوم أو كما قامت عليه نظرية إنجلز في التقسيم " النظري " للعمل ، وأكدت ميد أن النساء لدى هذه العشائر لا يتفوق عليهن الرجال لا في ضخامة الجسم ولا في قوته ، وإنهن كن يقمن بنشاطات تعتبر لدينا رجالية خالصة كما على سبيل المثال الحراسة وصيد الأسماك ([16]).

وتضيف المؤلفة أنه طالما أن المنظرين الاشتراكيين لا يضعون تقسيم العمل بين الجنسين بكليته موضع تساؤل ، وطالما أنهم ـ ولو ضمن حدود ـ ينطلقون من الفروق البيولوجية (الطبيعية) بين النساء والرجال ، فإن اشتراكية كهذه ، مقامة على هذا الأساس ، لن تخلص النساء من منزلتهن المنقوصة ، بالعكس هم يضفون شرعية على سيادة الرجال على النساء من خلال الفرق الطبيعي المزعوم .. ، وحيث تظل قدرة المرأة على الأمومة البيولوجية ذريعة لإلقاء مسؤولية الأمومة الاجتماعية على عاتق النساء وحدهن ، ومثل هذه الاشتراكية المطبوعة بالبطريركية لا تجلب للنساء أي تحرر من اضطهادهن كنساء ، لا تجلب لهن أي تحرر من سيادة الرجل ، لأن الاشتراكية تقصر العلاقات الاجتماعية على العلاقات الطبقية ، وهذا في مجتمع يتسم بعلاقات طبقية وجنسانية ، وهو

---

[15] دولة النساء دولة الرجال ، مرفرتنج في إعادة محاولة تأسيس سيكولوجيا الجنسين برلين ١٩٧٤ ـــ نقلاً عن كتاب أصل الفروق بين الجنسين ، مصدر سابق ص٣١

[16] المصدر السابق ص٣٢

الطرح الذي يجعلنا نصنف جهدها العلمي باعتباره نسوية ماركسية تتجادل فيها الطبقية مع الجنسانية .

الهوية النسوية

وإذا كانت الطبقة تتفاعل مع الجنسانية في الفكر النسوي الماركسي فإن فكر الهوية النسوي يرى أن الماهية الجنسانية الجوهرية هي أساس مركزي ، وهي موضوع التناقض الرئيسي في قلب الغالبية العظمى من المدارس النسوية المحافظة أو الراديكالية كما تقول " سيلفيا أجانسكي " في إضاءتها للأساس الفلسفي لحركة " التكافؤ " الفرنسية والتي تكافح من أجل مواقع متساوية للنساء والرجال في ميادين السياسة والتشريع بنسبة ٥٠٪، من جميع المقاعد وقد توصلت الحركة فعلاً لإصدار تشريع في الثالث من مايو عام ٢٠٠٠ يفرض على الأحزاب أن تخصص ٥٠٪ من المقاعد في هيئاتها للنساء ، وذلك بعد التعديل الدستوري الذي تقرر سنة ١٩٩٩ ونص على حق النساء في اقتسام مقاعد السلطات المنتخبة .

وقد أسست الحركة مجموعة من المثقفات الفرنسيات في بداية التسعينيات وتقول الحركة إن هناك إنسانية عامة وهي بالتعريف رجل وامرأة ، وقد كان إنكار هذه العمومية وليس الاعتراف بها والتأكيد بدلا من ذلك على الاختلافِ هو السبب الرئيسي الذي أنزل النساء الفرنسيات إلى موقع الجنس الثاني على حد تعبير " سيمون دي بوفوار " في كتابها الشهير بهذا الاسم .وتواجه حركة التكافؤ نقدا جذريا إذ قامت الفيلسوفة الفرنسية " إليزابيث بادنتر " بالاشتراك مع المحامية " إيفلين بيزيبيه " بمعارضة " تكافؤ" على أرضية إنسانية عامة أيضا وقالت " بادنتر " إن على الفرنسيين أن يفكروا أقل في عدد النساء في الجمعية الوطنية وينتبهوا إلى حقيقة أنه لا يوجد شمال إفريقي واحد في هذه الجمعية " وبصراحة إنه من الأصعب أن تكون إفريقيا شماليا من أن تكون امرأة ، وإذا ما قلت ذلك فسوف يرد عليك أنصار " تكافؤ " بالقول : إن النساء لسن فئة مثل الآخرين .. "

وتضيف الفيلسوفة قائلة أنا أرفض كل أشكال الجوهرية الثابتة والماهيــة الـتي لا تتغـير " إن تكـافؤ تقودنا إلى فكرة فحواها أن للنساء طريقة مختلفة في التفكير وهو ما لا أستطيع أن أقبله ٠٠" (١٧).

وفي أمريكـا تصـدر الحركـة النسـوية مانيفسـتوا لنسـويات نيويـورك الراديكاليـات باسـم سياسات الأنا التي تؤكد طابع الماهية الجوهرية الذي رفضته الفيلسوفة الفرنسية يقـول المنافيسـتو : الذي يتخذ طابعاً سيكولوجيا ." تتعرف النسوية الجذرية على اضطـهاد النسـاء باعتبـاره اضطـهاداً سياسياً في العمق حيث جرى تصنيف النساء دائماً كطبقة أدنى استناداً إلى جنسهن ، ويتمثـل هـدف النسوية الراديكالية في التنظيم سياسياً لتحطيم النظام الطبقـي الجنسـي ". ونحـن نـدرك كنسـويات ردايكاليات إننا منخرطات في صراع قوة مع الرجال لأن الرجل هو أداة قمعنا طالما يتماهى مع ويجسد امتيازات التفوق والسيادة التي ينطوى عليها الدور الذكـوري ، وإذ نـدرك أن تحريـر النسـاء سـوف يعني قطعياً تحرير الرجال من دورهم المدمر كقاهرين فليست لدينا أية أوهام حول ترحيـب الرجـال بمثل هذا التحرر .

وتكتسب النسـوية الراديكالية طابعها السـياسي من إدراكهـا أن مجـموعة من الأفـــراد (رجال) قد نظموا أنفسهم لاكتساب القوة في مواجهة النساء ، وأنهم أنشأوا المؤسسات في المجتمـع للحفاظ على هذه القوة .

النسـويـة الجذريـة

وبنفس الطريقة فإن إخفاق الرجل في تأسيس تفوقه ضمن ذكور آخرين كما هـو حـال رجـل أبيض فقير مثلاً ، يدفعه إلى ان يزيح عداوته إلى علاقته بالنساء ما دمن يشكلن جزءاً مـن الجماعـات السياسية القليلة التي تقع في متناول يده لإعادة تأكيد ذاته .

ونحن نعيش كنساء في تشكيلة قوة ذكورية وتتحدد أدوارنا بالضرورة طبقاً لما يراه الرجـــال ، وتصبح الخدمات التي نقدمها هي خدمات للأنا الذكورية ، ونحن نحصل علـى مكافآتنـا عـن هـذه الخدمات بقدر ما نحسـن تأديتـها وتنحصـر مـهارتنا ومـهنتنا في القـدرة علـى أن نكـون إناثـاً ، أي

Librety, eguality, sorority. French women jemand their sharer. Jane [17] kramer the new york kcr, may29-2000 p12

رقيقات ، ودودات ، سلبيات قليلات الحيلة معطاءات دائماً وأبداً وجذابات جنسياً أي كل مـا يؤكـد للرجل ويطمئنه أنه يأتي في المقدمة . وإذا ما أنجزنا هذا الدور جيداً فإننا نحصل على المكافأة فنتزوج زيجة جيدة ونتلقى معاملة أبوية حسنة ويقال عنا نسـاء ناجحـات وبوسـعنا أيضـاً أن نعـد صفحـات المرأة في الصحف .

وإذا ما اخترنا أن نمتنع عن أداء هذه الخدمات للأنا ، وعلى العكس أخذنا في تأكيد ذواتنـا باعتبارها تأتي في مقدمة أولوياتنا فإننا نحرم من الوصول إلى البدائل أي إلى حيث نتمكـن مـن تـأكيد ذواتنا نحن " ([١٨]) .

هذه هي الأفكار الأساسية للمانفستو الراديكالي .

وتنهل النسوية الراديكالية العربية من هذه المنابع كلها وتزيد عليـها تحالفـها مـع رجـال الفكر الديني المستنيرين وتأويلاتهم التقدمية للنص ، وتصل راديكالية النسوية العربية لحد قـول " نوال السعداوي " وهي من أبرز وأشهر الأصوات بتفوق الأنثـى علـى الذكـر في كتابـها " الأنثـى هـي الأصل " .

وتقول في كتابها " الرجال والجنس " هناك عديد من الأمثلة علـى شـدة خـوف الرجـل مـن المرأة ومن مظاهر خصوبتها ، هذا الخوف الذي جعلـه يطردهـا مـن المعـابد ويحتكـر لنفسـه الآلهـة والآخرة وما دامت هي قد ملكت الحياة الدنيا ، وملكت القدرة على خلق " الحياة " .

وأيا كان المنطلق الذي تبدأ منه الحركات النسوية سـواء في الوطـن العربـي حيـث مـا تـزال معركة التحرر الوطني محتدمة ووضع المرأة فيها ملتبس أو في العالم حيث تفرض العولمة الرأسماليـة هيمنتـها وتهمش وتستبد بالقوى الضعيفة ومن بينـها النساء ، فإن الواقع يـبرز حقيقتـين أساسـيتين فيما يخص موضوعنا الأولى هـي أن اسـتراتيجية ناجحـة لتحريـر النسـاء ورفـع منزلتـهن يجـب أن تشتمل على هـدف تغيـير المؤسسـات مجمـوع العلاقـات الاجتماعيـة الاقتصاديـة السياسـية والـرؤى

---

[١٨] Rebirth of Feminsm, Judith hole and elen levine , the new york times book, new york, 1975 p 445-441

الأخلاقية والفلسفية والتي تحدد مكانة النساء. والثانية هي بروز الحاجة لبناء خطاب فقهي لاهوتي إبداعي جديد تشارك النساء في صنعه وهو ما يفعلنه الآن على نطاق واسع .

والحركة النسائية العربية مطالبة في هذا الصدد .. أي إنتاج خطاب ديني تقدمي أن تتحالف مع فقهاء الهامش الذين جرى قمعهم على مر العصور شانهم شأن النساء ، وهؤلاء الفقهاء الذين يتسمون بالنزاهة والتجرد ، ويرون أن مبدأ أساسياً لابد أن يحكم العلاقات الاجتماعية والإنسانية بعامة هو مبدأ تساوي البشر جميعاً أمام الله ، وأيضاً مع القساوسة المستنيرين الذين يؤسسون للاهوت تحرير عربي ما زال في بداياته الأولى ، ودون أن يعني هذا التعاون مع المستنيرين الدينيين أي تنازل أو مساومة على اعتماد النساء للمرجعية العالمية لحقوق الإنسان وحقوق المرأة

قالوا

الشعراء يحملونَ أوطانهم على أجنحة قصائدهم ويطيّرون، وما أشقى الأوطان التى لا تحرسها كلمات الشعراء!!

نزار قبانى

الفن ليس طريقة معقدة لقول أشياء بسيطة ، بل طريقة بسيطة لقول أشياء معقدة.

جان كوكتو

ردا على الدكتور إبراهيم سعد الدين

ومجلة اليسار الجديد

من حرب اليمين إلى حرب اليسار.. لماذا؟

عطية الصيرفى

لعلى أكون قد أخطأت واعترانى الشطط فيما أبديه من رأى بشأن الإصدار الثانى لمجلة اليسار التى يصدرها حزبنا حزب التجمع اليسارى. هذا الإصار الذى أضاف كلمة الجديد إلى كلمة اليسار توصيفًا واعيًا لطبيعة مجلة حزبية فكرية يسارية جديدة، وتوصيفا لطبيعة اليسار الجديد.

وإذا تأملنا فى كلمة الجديد المضافة إلى كلمة اليسار فسوف نرى أنها كلمة مقصودة لما تتضمنه من مغزى سياسى ومضمون طبقى لا علاقة لهما باليسار الاشتراكى، وبالتالى فإن الإصدار الثانى لمجلة اليسار الجديد، قصده المشاركة فى زفة تهليل رأس المال فرحا فى سقوط الاشتراكية السوفيتية وغيرها من الاشتراكيات، بما فى ذلك الاشتراكية الناصرية. وقصده أيضا المشاركة فى إشهار فشل الماركسية فى مواجهة عالم رأس المال وعولمته الأمريكية والصهيونية المتوحشة، التى لم تعد أعلى مراحل - الاستعمار فقط بل باتت أعلى مراحل الاستعباد الكوكبى..

ومن ثم فإن المنبر اليسارى الجديد الصادر عن حزب التجمع اليسارى فى مصر، هو بمثابة شهادة ضد الماركسية واشتراكيتها صدرت من أهلها، اليساريين المصريين فى وقت تفشت فيه عبودية العولمة الأمريكية والصهيونية واستعبادها الصارخ للبشر كل البشر الذين يعضون الأنامل حسرة وتندما على سقوط القطبية الاشتراكية، والذين أحسوا أن العولمة تعاملهم معاملة الهنود الحمر أثناء فتح أمريكا، وتعاملهم معاملة الزنوج الأفارقة الذين اختطفوا من سواحل إفريقيا الغربية.. حيث القتل

بالجملة والإبادة بالجملة والسخرة لجملة والنهب بالجملة، وفقا لوصايا يشوع ابن نون التى وردت فى أسفار التوراة والتى هى عقيدة العولمة الأمريكية والصهيونية.

ولذلك فإن الاشتراكية وتنمتيها وعدلها الاجتماعى ومناهضتها للاستعمار باتت حلم البشر كل البشر، الذين يعانون من ويلات العولمة وما سببته من حروب عنصرية وعدوانية كوكبية ونهب كوكبى. وفقر كوكبى. وبطالة كوكبية وأمراض كوكبية وجرائم كوكبية وتلويث كوكبى للبيئة أرضها وبحارها وسمائها وتجارة كوكبية في المخدرات والرقيق. بالإضافة إلى محاولات العولمة بقيادة أمريكا فى إبادة الشعب العراقي والشعب الفلسطينى والشعب اليوغسلافى والشعب الأفغانى.. وللأسف فقد وقعت هذه الأهوال بفضل ثورة الاتصالات.. والثورة الصناعية والتكنولوجية الجديدة التى وظفت ضد البشر..

الفجر الكاذب

هذه هى العولمة التى انبهر بها وللأسف بعض المثقفين اليساريين فى مصر وغير مصر بعد سقوط القطبية الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى. رغم أن العولمة مجرد فجر كاذب بشأن طموحات البشر فى الخبز والزبد والعمل والحرية والسلام.

وقد بدأ ذلك الانبهار فى مصر المعاصرة بظهور الإصدار الثانى لمجلة اليسار الجديد، الداعية إلى نشوء يسار جديد، يرتكز على أصول مرجعية غير ماركسية.. علما بأن الماركسية هى علم العلوم فى مجالات العدل الاجتماعى والاشتراكى وصراع الطبقات.. وذلك فضلا عن أنها وريثة دعوات العدل الاجتماعى فى التراث الدينى والإصلاحى، وفى مضمون ثورات العبيد والفلاحين والعمال.. ولهذا يقال إن هيئة الأمم المتحدة قررت تدريس علم الماركسية فى المدارس والجامعات.

ففى مجلة اليسار الجديد التى كتب افتتاحيتها الأستاذ الدكتور إبراهيم سعد الدين بقصد التعبير عن توجهها العام، الذى كان بمثابة لطمة للماركسيين وحرب على الاشتراكية من خلال ما ورد منها بعنوان «التناقض بين الطابع الاجتماعى للإنتاج والطابع الفردى للملكية».

إن إحدى المسلمات التى كان يُستند إليها فى القول بحتمية الحل الاشتراكى. وفى تفوق التنظيم الاقتصادى الاجتماعى للاشتراكية، هى مقولة بروز وزيادة التناقض بين الطابع الاجتماعى للإنتاج والتوزيع والطابع الفردى للملكية الرأسمالية. إن مثل هذا التناقض يؤدى إلى هدر فى الموارد البشرية والمادية التى تتعطل بين فترة وأخرى كنتيجة للتعليمات الدورية بين الرواج والكساد. كما أن أغلب

المشروعات الرأسمالية تعمل بأقل طاقاتها الإنتاجية معظم الوقت.

وعلى العكس من ذلك فإن الملكية المجتمعية وما يصحبها من تخطيط شامل.. ومن السعى لتحقيق توازن فعلى بين العرض والطلب وبين فروع الصناعات والأنشطة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، هو الكفيل بتحقيق كفاءة أعلى واستخدام أكثر كفاءة لعناصر الإنتاج واستبعاد ظاهرة الهدر التى يتضمنها الاعتماد على المنافسة.

إن هذه المقولة لم تُثبت صحتها فى الواقع العملى. ورغم أن الاعتماد على المنافسة قد يتضمن هدرا لبعض الموارد بين وقت وآخر، فإن التنافس لتحقيق أقصى الربح بواسطة المشروعات الرأسمالية، يدفع بصفة مستمرة إلى السعى لتحقيق خفض فى التكاليف والسعى للوصول إلى تحسين طرق الإنتاج، وتطوير المنتجات خاصة بعد أن حلت المنافسة غير السعرية محل المنافسة السعرية، واعتمدت هذه المنافسة على التجديد المستمر للمنتجات والتطوير المستمر لطرق الإنتاج ذاتها..

من ناحية أخرى فإن المشروعات الرأسمالية المستقلة عن بعضها البعض قد تصدر قرارات فى اتجاهات متعاكسة، مما يؤدى إلى إلغاء تأثير أخطائها بواسطة بعضها البعض..

وعلى العكس من ذلك فإن أخطاء أجهزة التخطيط كثيرا ما تبقى غير مُصححة، إلا بعد تراكم الأخطاء وبروز الاختلالات فى التوازن بين الأنشطة والقطاعات. وقد صاحب التخطيط فى العديد من الحالات بروز عجز شديد فى عرض العديد من السلع مع وجود فائض كبير فى منتجات أخرى.

من ناحية أخرى فإنه بينما كان التطوير والتحسين هو جزء أساسى من أنشطة المشروعات الرأسمالية المتنافسة، فقد كان مثل هذا النشاط محدودا فى إطار وحدات الإنتاج الخاضعة للتخطيط المركزى فى المجتمعات التى كانت تسعى لبناء الاشتراكية. وذلك باستثناء فروع الإنتاج المتعلقة بالإنتاج الحربى وبصنع السلاح.

وقد تطورت الرأسمالية فى المرحلة المعاصرة، لتصبح رأسمالية ذات طابع كوكبى. وأصبحت الشركات المتعدية الجنسيات هى المسيطرة على الإنتاج والتوزيع، وعلى حركة رءوس الأموال واستطاعت هذه الشركات أن تدير بكفاءة وحداتها المتعددة فى أرجاء المعمورة بنقل ثورة الاتصالات الحديثة وبفضل الثورة فى طرق الإدارة التى صاحبتها..

هكذا تخلت قناعة الأستاذ الدكتور إبراهيم سعد الدين عن حتمية الحل الاشتراكى، وعن التخبط الاشتراكى للاقتصاد حيث ثبت له عدم

صحة قوانين الماركسية والاشتراكية فى الواقع العملى. فالتناقض بين الطابع الاجتماعى للإنتاج والتوزيع، والطابع الفردى للملكية لم يعد شيئا مذكورا، وأن التخطيط الاقتصادى قد تأكد فشله فى الحياة والمجتمع وإن الرأسمالية تستطيع تصحيح أخطائها بنفسها وأنها باتت ذات طابع كوكبى تدير بكفاءة وحداتها وشركاتها المتعدية الجنسية بكفاءة، مما جعلها تسيطر على الإنتاج الكوكبى والتوزيع الكوكبى وعلى حركة رءوس الأموال فى العالم.. مما يثبت أن الاشتراكية فقدت مصداقيتها أمام الرأسمالية.

ولا يعنى هذا إلا أن قناعة الأستاذ الدكتور إبراهيم سعد الدين قد رست على ضفاف مفهوم العالم اليابانى ـ الأمريكي.. فوكوياما.. فيلسوف عولة رأس المال الذى قال قولته المشهورة.. الرأسمالية نهاية العالم..

أسباب السقوط

ولكن كيف استطاعت الاشتراكية السوفيتية أن تحقق قطبية عالمية متعددة. أى قطبية اقتصادية حولت روسيا القيصرية من دولة متخلفة ترتيبها السابعة عشرة فى قائمة الدول المتقدمة إلى دولة عظمى وقطبية صناعية فى صناعات الحليب والكهرباء والحديد والصلب والصناعات العسكرية والذرة والفضاء.. وقطبية عسكرية استطاعت دحر وهزيمة ألمانيا النازية والهتلرية وساعدت الثورة الصينية وحرب كوريا ضد أمريكا وأتباعها، وحرب فيتنام المجيدة ضد فرنسا ثم ضد أمريكا.. وقطبية فى مجال العدل الاجتماعى: تعليم مجانى للشعب السوفيتى وشعوب العالم الثالث وعلاج مجانى للشعب السوفيتى وشعوب العالم الثالث. وقطبيه فى مساعدة حركات التحرر ودول العالم الثالث بالخبرات والمساعدات الفنية والصناعية والإنشائية والسلاح.. وقطبيه إنشائية استطاعت إنشاء أول نفق للمترو فى العالم، بالإضافة إلى بناء السدود فى الاتحاد السوفيتى وفى مصر.. وقطبيه سياسية استطاعت تحجيم العدوانية الأمريكية..

هذه هى القطبية الاشتراكية العملاقة التى حققتها الاشتراكية رغم عيوبها وسلبياتها. ولكن لم يقل لنا الأستاذ الدكتور إبراهيم سعد الدين كيف نشأت؟ وكيف سقطت تلك القطبية؟ فهذا السقوط لم يمكن بسبب عيوب القوانين الاشتراكية والماركسية كما نوه أستاذنا الدكتور ولكن السقوط حدث بسبب أمور مختلفة وهى: عيوب التطبيق الاشتراكى دون عيوب النظرية الاشتراكية.. وحداثة عمر وتجارب الاشتراكية بالنسبة للرأسمالية.. وتآمر أمريكا ورأس المال والصهيونية.. وعدم

تعدد المراكز والأحزاب الاشتراكية وعدم تعدد النقابات العمالية والجمعيات التعاونية فى الوطن.. الاشتراكى.. وتغليب المركزية على الديمقراطية فى الحزب الاشتراكى والسلطة الاشتراكية والمجتمع الاشتراكى.. وتهميش العمال والفلاحين فى قيادة الحزب الاشتراكى والسلطة الاشتراكية.

وانتقل من افتتاحية الحرب إلى الحرب نفسها الذى شنها الدكتور رفعت السعيد الأمين العام لحزبنا حزب التجمع اليسارى بإصدار كتابه الصغير والخطير.. كلام فى السياسة.. وبمقاله هذا فى مجلة اليسار الجديد تحت عنوان: على ذكر الصين.. هل هى بدايات حلم. إيديولوچى جديد..

والأمر الغريب أن الدكتور رفعت السعيد قد شن الحرب على الماركسية واليسار الاشتراكى، رغم انشغاله بحرب المفاهيم ضد اليمين والأسلمة وفاشيتها وإرهابها الدموى منذ عقدين من الزمان، وذلك دون أن تصب هذه الحرب ضد مضمونها الاجتماعى الرأسمالى المعادى للفقراء هذا المضمون المتفق مع المضمون الحكومى تماماً.

ومما يذكر فإن حصاد الدكتور رفعت السعيد وحصاد حزبنا حزب التجمع اليسارى من حرب اليمين والأسلمة الطويلة كان مجرد هشيم تذروه الرياح مما يدعو حزبنا اليسارى إلى ترديد مقولة «لله يا زمرى»..

ورغم ذلك فقد قسم حربه إلى حرب اليمين والأسلمة المستمرة حتى يومنا هذا، وإلى حرب جديدة ضد الماركسية واليسار الاشتراكى مما يجعلنى أحيى قدرات الدكتور رفعت السعيد فى ممارسة حرب المفاهيم يمينا ويسارا فى وقت واحد، وذلك رغم خلافى معه فى ممارسة كلتا الحربين لعدم جدوى هذه الحرب المزدوجة والمتناقضة.. للناس فيما يعشقون مذاهب..

ولقد استهل الدكتور رفعت السعيد جولته الثانية فى حرب الماركسية بمقالته المشار إليها من قبل بمقولة سبينوزا التى تقول.. إن وقعت واقعة عظيمة لا تضحك ولا تبكى ولكن فكر.. ولقد فكر كثيرا كثيرا وسكت كثيرا كثيرا ثم قال:

كمثال الماركسية كفكر.. كيف يمكن حصرها. كيف يمكن التعرف على حدودها المكتوبة فحتى فى الأديان نعرف حدود الأصول.. ففى الإسلام القرآن وصحيح السنة، وفى المسيحية الأناجيل الأربعة.

لكن الفكرة الماركسية تكاد تكون بلا ضفاف، خاصة عند هؤلاء الذين عشقوا النص وارتاحوا فى أحضانه وتعبدوا فى محراب حروفه - فهل هى كتابات ماركس وإنجلز كلها. (مثلا ترجم كتابه الأيديولوچية الألمانية لماركس وإنجلز إلى عشرات اللغات ومنها ترجمتان

عربيتان وتلاحق الكثيرون فى إظهار النص الصعبة المراس والمنغمسة فى عراك فلسفى بالغ التعقيد ثم اكتشفا وياللروعة أن صاحبى الكتاب كتبا فيما بعد انهما اكتشفا فيه أخطاء عديدة فتركاه لقرض الفئران).

فهل هناك فى الأيديولوچيات ناسخ ومنسوخ؟ طبعا. لكن البعض تعبد الناسخ والمنسوخ معًا، ولكن يبقى سؤال هل الماركسية كل هذا النقيض من الكتابات لماركس وإنجلز ولينين. وهل الكتابات ملزمة؟ وهل الماركسية فكرة شاملة عالمية تطبق بنصوصها وكما هي دون تعديل في كل زمان وكل مكان؟

أم أن النصوص تلزم أصحابها ولها منا الدراسة لتهتدى بمنح التفكير مجرد اهتداء وليس اقتداء.. وإن الأساس الجوهرى هو مجموعة من القوانين العامة يمكن تطبيقها بوسائل وأساليب ومعايير وقيم تختلف، من بلد لبلد ومن زمان لزمان بمعنى أن هناك أكثر من ماركسية.

أرأيتم هذه السطور من مقالة الدكتور رفعت السعيد التى توحى بأنه راح يفكر ويفكر فى مسألة سقوط القطبية الاشتراكية باعتبارها طامة كبرى لليسار وقوى التقدم والتحرر فى العالم. وذلك عملا بوصية الفيلسوف سبينوزا التى ورد ذكرها. وانتبه مطاف التفكير إلى ضرورة الإطاحة بصرح الماركسية وزلزلة قناعة اليسار الاشتراكى فى مصر والوطن العربى والعالم، حتى يأتى يسار جديد غير اشتراكى وغير مؤمن بصراع الطبقات ومناسب للعولة الأمريكية والصهيونية ورأس المال وسلطة رأس المال على المستوى الوطنى على الأقل تحقيقا للسلام الاجتماعى والحضارى..

إن اليسار المرتجى هو يسار سقوفه منخفضة ومطالبه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والديمقراطية متواضعة فى مواجهة سلطة رأس المال والعسكرة المصرية فى وقت باتت فيه مصر شبه مستعمرة أمريكية من الناحية الواقعية، حيث المعونات الأمريكية وشروطها والمشاورات والاتفاقيات الأمريكية الظاهرة والمستترة. فضلا عن المناورات العسكرية المصرية والأمريكية..

وهم بلا ضفاف

ونظرا لأن مصر المعاصرة تعيش فى مرحلة ثورة وطنية من نوع جديد؛ فهل يستطيع اليسار المنتظر والمسالم المساهمة الفعالة فى تعبئة الوطنية المصرية والشعب المصرى للتصدى للاستعمار الأمريكى الذى فرض جبروته واستعباده على شعوب الكوكب الأرضى دون أن تناطحه دولة من الدول، مثلما

كانت الإمبراطورية الرومانية بعد أن هزمت القائد العسكرى الإفريقى هانيبال عميد العسكرية فى العصر القديم. وبعد أن هزمت أيضا ثورة العبيد بقيادة سبارتكوس واستولت على مصر مما جعلها تنفرد بالعالم القديم وتفرض السلام الرومانى على شعوب الأرض..

إن اليسار الجديد المطلوب والمنشود سوف يكون يسارا هشًا يجرى وراء الاستفادة دون التضحية.. وعلى الوطنية المصرية وطموحاتها السلام..

ذلك هو مناخ الحال المصرى الذى جعل الدكتور رفعت السعيد يصول ويجول فى حربه للماركسية واليسار الاشتراكى، مما ذكرنا بالشاعر العربى الجاهلى امرؤ القيس الذى قال فى معلقته مُكِرٍ مُفِرٍ مُدْبِرٍ معًا.. هكذا يفعل الدكتور رفعت فى حرب المفاهيم التى يخوضها ضد اليمين والأسلحة ضد الماركسية واليسار الاشتراكى فى مصر والعالم..

وتأكيدا لذلك فقد شبه الماركسية بالدين وحاشا لله فما هى بدين.. ولكنها مجرد شأن نظرى بشرى أرضى يخص الحياة وصراعات الحياة.. وهى أيضا شأن لا علاقة لها بالجن والملائكة، ولا علاقة لها بالسماء والحياة الأخرى..

ولذلك فإن حدودها الأصولية والمرجعية محدودة جدا خلافا لما يقول الدكتور رفعت السعيد الذى يدعي أن حدودها بغير ضفاف لكى يثبت أن الماركسية وهم فى وهم لأن الوهم بلا ضفاف..

والحدود الأصولية والمرجعية الماركسية تتجلى فى التراث الدينى.. ففى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة زجر للذين يكنزون الذهب والفضة وليس للإنسان إلا ما سعى بجهده وعمله وعرقه وتحريم لكراء الأرض التي يجب أن تعطى فلاحتها بالمجان، وأن الناس شركاء فى ثلاث: الماء والنار والكلأ. بالإضافة إلى ممارسات الظاهرة العمرية الاشتراكية وأقوال الصحابى الجليل أبو ذر الغفار أبى الاشتراكية فى الإسلام.

وفى المسيحية يقول إنجيل متى.. لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ. وحيث ينقب السارقون ويسرقون.. ويقول.. لا تقدروا أن تخدموا الله والمال.. ويقول... لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم.. ولا مزودا للطريق.. ولا ثوبين ولا أحذية..

وذلك بالإضافة إلى ممارسات الاشتراكية المسيحية للمسيحيين الأوائل فى كل حياتهم.. وممارسات مجموعات لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية هذه المجموعات التى أنحازت إلى الفقراء والمظلومين.

كما تتجلى هذه الحدود الأصولية

للماركسية فى مضمون وأهداف ثورات العبيد. ثورة سبارتكوس فى الدولة الرومانية، وثورة الزنج وثورة القرامطة فى الدولة العباسية وفى حروب الفلاحين. وفى ثورات الطبقة العاملة..

كما أن الحركات الإصلاحيات والتعاونية فى انجلترا وغيرها كانت مصدرا مرجعيا للماركسية.. وذلك بجانب الاقتصاد الإنجليزي والاشتراكية الفرنسية والفلسفة الألمانية، وكتابات ماركس وإنجلز ولينين وستالين وماو وهوش وكاسترو وغيرهم وغيرهم..

تلك هى الأصول المرجعية المحدودة للماركسية مما يثبت أنها ذات ضفاف، بصرف النظر عن وصف نصوص الماركسية بأن بعضها ناسخ وبعضها منسوخ، لأنها نظرية بشرية تصحح نفسها بنفسها خلال تطبيقاتها، التى تختلف من بلد إلى آخر مراعاة للزمان والمكان، ومراعاة للقيم والعادات والأعراف لكل شعب من شعوب الأرض كما يقول الدكتور رفعت فى مقال الحرب الذى نتحاور حول مفهومه ومضمونه.

وفى سياق كر الدكتور رفعت السعيد وكره وفره وإقباله وإدباره فى مقاله هذا، قال بالحرف إن نصوص الماركسية تلزم أصحابها ولكن علينا دراستها للاهتداء دون الاقتداء.

وهذا هو الحاصل فالماركسية، هى مجرد مرشد للعمل النضالى خلال الصراعات الطبقية والوطنية، ولم ولن تكره أحدا على الأخذ بها أو تجبر أحدا على الاقتداء بها، لأن نصوصها ليست مقدسة، وذلك مصدر قوتها. فضلا عن أنها قابلة للتطوير حسب الزمان والمكان، بدليل أنها تطورت على يد لينين وماو وغيرهما، وسوف تتطور وتتطور فى إطار أنها ماركسية واحدة، ذات تطبيقات ثورية مختلفة.. وذلك خلافا لما قاله الدكتور رفعت السعيد بوجود أكثر من ماركسية..

وللعلم فإن المقولة الأخيرة بوجود عدد من الماركسيات، تتضمن تشبيه الماركسية بالإسلام، حيث تأثر الدكتور رفعت السعيد بما يردده البعض بوجود أكثر من إسلام أى أن هناك إسلاما عربيا وإسلاما مغوليا وإسلاما تتريا وإسلامًا إيرانيًا.. إلخ. مع أنه لا يوجد غير إسلام واحد هو الإسلام الحنيف.

بعد هذا أرأيت أيها اليسار الاشتراكى المصرى أن الماركسية مجرد نظرية بشرية ذات حدود أصولية محدودة وذات تطبيقات مختلفة، وأنها مجرد مرشد للعمل النضالى، وأنها قابلة للتطوير حسب الزمان والمكان.. وأنها لا يمحوها إلا علم بديل ثبتت صحته وتأكدت قوانينه فى الحياة والمجتمع..

وأخطر ما أثاره الدكتور رفعت السعيد فى سياق حربه للماركسية بمقاله هذا هو زجه بالأديان، حيث قال «وحتى الأديان فإن لها

حدودها الأصولية المعروفة والمحددة» لكي يكرر وجهة نظره بالقول بأن الماركسية غير مجددة الأصول المرجعية مما جعلها بغير ضفاف، مثلها مثل الأوهام والخيالات.. ثم أضاف «ففي الإسلام. والقرآن والسنة»، وغفل عن ذكر الإجماع والعقل. حيث يُفسر القرآن بالقرآن ثم بالحديث ثم بالإجماع ثم بالعقل.. فالقرآن الكريم باعتباره كلام الله سبحانه وتعالى ليس له حدود، لأن كلمات ربى لا حدود لها فى المضمون ولا فى التفسير والتأويل.

كما أن التفسير القرآنى فى الماضى والحاضر والمستقبل لا حدود لمصادره، ففى كتاب مجاهد، التفسير والمفسر للدكتور أحمد إسماعيل نوفل يقول إن مصادر تفسير القرآن فى صدر الإسلام هى: القرآن الكريم وقراءاته والسنة النبوية. قوة الاستنباط والاجتهاد وذلك فيما لا نص فيه من قرآن وسنة وأهل الكتاب من اليهود والنصارى..

بالإضافة إلى هذه المصادر فقد زاد ابن عباس على العنصرين المعروفين فى تفسير القرآن الكتاب والسنة، عنصر الشعر الجاهلى.. وعنصر الأخبار التى لم تجئ فى حديث النبى.. يؤيد ذلك ما جاء فى تفسير الطبرى للقرآن. وفى الدر المنثور للسيوطى.

إذن فالقرآن الكريم باعتباره أصل الأصول المرجعية للإسلام لا حدود لها، وكذلك فإن بقية الأصول فى هذا المجال المحاط بالقداسة مثل السنة والخلاف حول صحيحها بين أهل السنة والشيعة والإجماع والعقل ومداه الواسع والاستنباط والاجتهاد وآفاقه المترامية، وأهل الكتاب والشعر الجاهلى والأخبار التى لم تجئ فى أحاديث النبى كلها أصول مرجعية إسلامية لا حدود لها يا دكتور..

والمسيحية لا تنحصر أصولها المرجعية فى الأناجيل الأربعة وفى الرؤيا وقرارات مجمع بنقيه كما يقول الدكتور رفعت السعيد، بل تتسع لكى تضم أسفار التوراة والثقافة اليونانية والثقافة الرومانية.

وحتى اليهودية ليست أصولها المرجعية فى التوراة وفى التلموذ فقط بل امتدت أصولها المرجعية إلى مجمل الثقافة الفرعونية فى مصر القديمة حيث أخذت الكثير والكثير من فنون الأهرام وكتاب الموتى وأقوال الحكماء المصريين، ومن ثم فالثقافة الفرعونية تكاد تكون أصل الأصول فى الدين اليهودى.

هكذا كانت الحدود الأصولية للأديان لا نهائية تقريبا (على عكس ما يرى الدكتور رفعت السعيد) مما أدى إلى انتشار الفرق الدينية.. ففى الإسلام ظهرت أكثر من سبعين فرقة إسلامية منها أهل السنة والخوارج والأشاعرة.. والمعتزلة والمرجئة والرافضة والدهرية والدروز.. فى المسيحية ظهرت

الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانية والمارونية والنسطورية. وفى اليهودية المارونية والموسوية والريانيين والقرابين والسامريين.

لعلى أكون بعد هذا الجهد أكون قد وفقت بعض الشيء فى تصحيح الأمور المقلوبة التى طرحها الدكتور رفعت السعيد خلال معاودته فى حرب المفاهيم ضد الماركسية بشأن الحدود الأصولية والمرجعية للماركسية من جهة والحدود الأصولية المرجعية للأديان من جهة أخرى.. حيث الأصول المرجعية للماركسية محدودة ومحددة جدا، باعتبارها نظرية بشرية همها الحياة وصراع الحياة. بينما الحدود الأصولية والمرجعية للأديان غير نهائية تقريبا، باعتبار الأديان تخص عالم الإنس والجن والملائكة وتخص السموات السبع والأرضين السبع والحياة الدنيا والحياة الآخرة..

ديمقراطية مشوهة

ولم أكد أخرج من غابة الأصول المرجعية للماركسية والأديان حتى وجدت أمامى ثلاث مسائل مهمة طرحها الدكتور رفعت السعيد للمرة الثانية وهى مسألة الاشتراكية ومسألة الديمقراطية ومسألة تبادل السلطة حيث قال: ومن ثم تكون التجربة الصينية واحدة من تنويعات تفردت بها رغم إدانة البعض (قديما) لهذا التفرد.. وقال أيضا: وكمثال آخر لهذه الأسئلة المعقدة إذا كان النقد الأساسى للنموذج السوفيتى المنهار هو افتقاد الديمقراطية والحريات الأساسية، وإذا كان الكثيرون يقرون الآن بضرورة البحث عن نموذج مثالى لقيم وتطبيقات اشتراكية ديمقراطية، فإن هذا النموذج يثير مشكلات عديدة ومثيرة للحيرة. فالديمقراطية تعنى بالأساس القبول بالتعددية الحزبية. وتعنى القبول بتداول السلطة وفى إطار كهذا، يمكن أن نسأل أنفسنا: إذا وصل حزب اشتراكى إلى السلطة عبر الانتخابات طبعا وطبق كل طموحاته: مصادرة الملكيات الزراعية. تأميم الصناعات الكبرى والمصارف والملكيات الكبيرة. ثم بعد أربع سنوات لم ينجح فى الانتخابات. وتشكلت حكومة رأسمالية فألغت التأميمات وأعادت الأراضى والمصانع والممتلكات إلى أصحابها.. ثم عاد الاشتراكيون بعد أربع سنوات ثم هل يمكن لأى نظام اقتصادى واجتماعى أن يتحمل هذه الأرجوحة.. قطعا لا. فما هو الحل؟..

هكذا يرى الدكتور رفعت السعيد أنه قد وضعنا على قرنى الإحراج بتصوره هذا وما يولده من أرجوحة تبادل السلطة تؤدى إلى بناء وهدم المجتمع اقتصاديا واجتماعيا كل أربع سنوات..

ولذلك أقول إن الديمقراطية ضرورة..

وتعدد الأحزاب والنقابات والتعاونيات ضرورة..
وتبادل السلطة ضرورة..

ولكن الديمقراطية الأمريكية بالذات ديمقراطية مظهرية ومشوهة بالعسكرة والعنصرية الطبقية، فلم تسمح ولن تسمح، بقيام أحزاب اشتراكية ونقابات وتعاونيات يسارية، وبالتالى فالديمقراطية الأمريكية المظهرية هى فى وجهرها دكتاتورية تعبر عن رأس المال الأمريكى وعسكرته، ولهذا لا يوجد فى أمريكا غير حزبين يمثلان مصالح طبقة رأس المال المالى الكبير ومن ثم يتبادلان وحدهما السلطة فى أمريكا طوال تاريخهما الحديث، دون أن تحدث الأرجوحة التى قال عنها الدكتور رفعت السعيد.

ولذلك فإن بدعة تبادل السلطة بين الأحزاب الرأسمالية وحدها دون الأحزاب الاشتراكية الحقيقة والمعبرة عن مصالح العمال والفلاحين وجمهور الفقراء والكادحين فى أمريكا وأوربا، لا شأن لها بالديمقراطية الحقيقية. ولا أغالى إن قلت إنها دكتاتورية رأس المال القادر على تضليل الجماهير التى ارتضت بتبادل السلطة بين الأحزاب الرأسمالية وحدها فقط.

ولو أن القطبية الاشتراكية فى الاتحاد السوفتى قد سمحت بتعدد الأحزاب الاشتراكية وتبادل السلطة الاشتراكية بينها لما سقط الاتحاد السوفيتى ودول المعسكر الاشتراكى.

وإذا تأملنا فى مسألة الأرجوحة التى توقعها الدكتور رفعت السعيد فإن تعدد الأحزاب يعنى تعدد الأحزاب الاشتراكية لأن الجماهير اليسارية والاشتراكية، نبذت فكرة الوحدانية الحزبية للأحزاب الاشتراكية كما هو حادث الآن فى روسيا. هذه الأحزاب التى يمكن فقط أن تتحالف فى إطار وحدة عمل فقط دون مركزية حزبية ملزمة.. وبالتالى فمن الممكن تبادل السلطة بين الأحزاب الاشتراكية دون الأحزاب الرأسمالية وفقا لإرادة جماهير الناخبين الذين سوف ينحازون حتما للأحزاب الاشتراكية دون الأحزاب الرأسمالية فى نفس الوطن.

والأمر الذى غفل عنه الدكتور رفعت هو المقولة التى تقول. لا يدرك الشوق إلا من يكابده.. ففى ظل مجتمع مدنى ديمقراطى تسوده الديمقراطية وتعدد الأحزاب الاشتراكية، فى مواجهة تعدد الأحزاب الرأسمالية حيث تتبادل السلطة. فإن الأحزاب الاشتراكية سوف تكسب وتحول دون وجود أرجوحة الدكتور رفعت السعيد.

وذلك نظرا لأن أهداف وطموحات الأحزاب الاشتراكية سوف تهم الأغلبية من السكان الأكثر عددا والأشد فقرا، والواعية بأمورها ومصالحها البعيدة والقريبة فى مواجهة الأقلية

السكانيــة، من الأغنيــاء والرأســمــاليين والشيوعيين أنصار الأحزاب الرأسمالية علما بأن جمهور اليسار الاشتراكى قد ازداد عددا ووعيا من جراء سقوط الاشتراكية السوفيتية، التى دفعت هذا الجمهور إلى الجوع والفقر والتشرد.وممارسة الرذيلة وتجارة الرقيق حيث اضطرت الآلاف من النساء الروسيات بعد سقوط الاشتراكية السوفيتية، إلى مزاولة البغاء والانخراط فى سوق الرقيق فى دول الخليج وفى أمريكا وغيرها.

اشتراكية المستقبل

بالإضافة إلى أن الطبقة العاملة فى ثوبها الجديد قد ضمت إلى صفوفها جمهور العاملين بأيديهم وجمهور العاملين بأدمغتهم، من البروليتاريا المهنية. والفنية من الأطباء والمهندسين والمحاسبين والمعلمين والمحامين والعلميين فى الجامعات والمعاهد والفنية فى الاتصالات الحديثة والصناعات الحديثة.

إن هذا الجمهور الكادح الواعى والمترامى لم ولن يقبل بأرجوحة الدكتور رفعت السعيد فى حالة وصول الأحزاب الاشتراكية إلى السلطة عبر انتخابات ديمقراطية حرة. وفى حالة تحقيق طموحاته الاشتراكية التى سوف تقضى على الفقر والبطالة، وتحقق التنمية والرخاء مما يدفع جمهور الكادحين إلى الحفاظ على الطموحات الاشتراكية التى يحلمون بها.. ولا يدرك الشوق إلا من يكابده..

وآخر مسألة جرنا إليها الدكتور رفعت السعيد مسألة الصين التى يرى أنها فى الطريق إلى تحقيق حلم أيديولوچى جديد.. طبعا مغاير للاشتراكية.

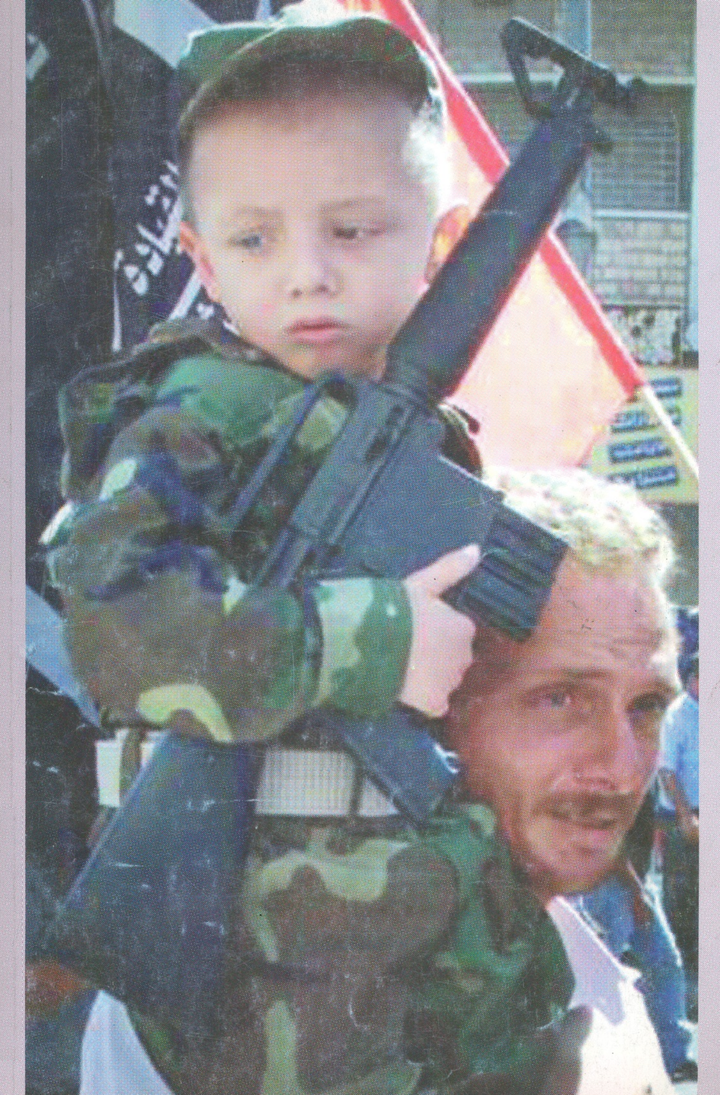
ويبــدو أن دليله فى هذا يتلخص فى الاستثمارات الأجنبية فى الصين. وفى علاقة الصين بالمؤسسات الرأسمالية الدولية.. ألم يقل لينين: مرحبًا بالخبرة الأمريكية ومرحبًا بالاستثمارات الأمريكية فى الاتحاد السوفيتى.

إن هذا الحلم الصينى الأيديولوچى الذى تنبأ به الدكتور رفعت السعيد ولمحه من بعد ليس هو حلم فرعون الذى فسره.. يوسف «عليه السلام» بقدوم قحط على مصر طوال سبع سنين تتحول فيه البقرات السمان إلى بقرات عجاف، وتتحول السنابل الخضر إلى سنابل يابسات. فالحمد لله فإن بقرات الصين سمان سمان.. وسنابل الصين خضر خضر وتنميتها الاشتراكية مشرقة ومزدهرة إلى أبعد الحدود فى ظل حكم الحزب الشيوعى الذى ترفرف راياته الحمراء فى سماء الصين الاشتراكية.

وأخيرا أتقدم بالتحية للأستاذ الدكتور إبراهيم سعد الدين الذين أختلف مع ما قاله فى افتتاحية مجلة اليسار الجديد.. وأتقدم

بالشك للدكتور رفعت الأمين العام لحزبنا حزب التجمع. حزب اليسار المصرى الذى جرنى جرا إلى غابة الفكر المتشابكة الأغصان وشدنى شدا إلى حرب المفاهيم الصعبة والمعقدة. مما اضطرنى إلى الدفاع عن اشتراكية المستقبل القادرة على قبول تعدد الأحزاب الاشتراكية وتعدد الأحزاب الرأسمالية معا. وتعدد النقابات العمالية والمهنية وتعدد التعاونيات الفلاحية والحرفية فى الوطن الواحد والقادر على تبادل السلطة بواسطة انتخابات حرة مباشرة والقادر على تغليب الديمقراطية على المركزية فى الأحزاب الاشتراكية وفى السلطة والمجتمع. والواعية بحدود الطبقة العاملة فى ثوبها الجديد، التى تضم العاملين المعدمين والحرفيين الفقراء.. والواعية كذلك بأن مصر باتت شبه مستعمرة أمريكية وعالم جديد، عالم العولمة الأمريكية والصهيونية. كما يدعو اليسار الاشتراكى إلى تنمية عضويته الاشتراكية، تدعيما للوطنية المصرية فى مواجهة دوله رأس المال والاستعمار الأمريكى وعولمة الصهيونية.

إن اليسار المرتجى يسار اشتراكى وطنى جماهيرى تربى وتعمد فى التضحية. يسار يحظى بالاحترام من القوى الوطنية والتقدمية.. وليس مجرد يسار اسمى وشكلى تربى وتعمد على المنفعة. ومن ثم يفقد اليسار المصرى احترامه وينظر إلى شخصياته العتيدة باعتبارهم الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.



شخصية العدد . . الطفل الفلسطيني : كلنا فداء للوطن